

شريف شوقي

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

هذه السلسلة ..

عندما تتحوَّل حياة الفرد منا إلى صحراء جرداء ..
وعندما تجف مشاعرنا وتستحيل إلى أغصان يابسة ..
يتوق قلب كل منا إلى الحبِّ .. الحبِّ الذى يروى هذه المشاعر .
فيعيد إلى أوراقها الخضرة .. ويبدل صحراءها إلى بساتين مزهرة ، ورياض غناء .

إنه الحب .. الحب بمعناه الرحب : حب الحبيب .. حب الابن .. حب الأب .. حب الأم .. حب الوطن .. حب البشر ..

هذه الكلمة السحرية التى تذيب أحجار القلوب .. وتنبت الزهور اليانعة فى صخور المشاعر الصلدة ..

إنها الزهور التى ينشدها كل منا فى لحظات اليأس .. وفى لحظات الغضب.. وفى لحظات الكراهية.. وفى لحظات الجفاف .. فتشيع عبيرها الفوَّاح في ثنايانا ، وتعيد الخضرة إلى قلوبنا ، والربيع إلى كهولتنا ، والأمل إلى حنايانا .

إن الحب بمعناه الكبير .. ومعناه السامى ، وبابتعاده عن الأنانية والرغبات والشهوات ، لهو أعظم شىء خلقه الله فى هذا الوجود !!

وفى هذا الزمن الذى طغت فيه الأطماع المادية والأنانية الفردية ، نحن نحتاج الآن لمن يسمو بمشاعرنا .. نحتاج لهذا النوع من الحب .. نحتاج لزهور نستنشق عبيرها ، فتحرك مشاعرنا ، وترقق عواطفنا ..

وفى كل قصة من قصص هذه السلسلة ، دعنا ننتقل من زهرة إلى زهرة .. فى بستان ملؤه جمال المشاعر .. ورقة الأحاسيس .. وزهور الحب .

المؤلف

١ ـ تضحيـة رجـل ..

اقترب الرجل الذى ارتسمت على وجهه ملامح اليأس والأسى ، من رجل الأعمال المعروف (شاكر عزمى) قائلاً له فى استحياء :

ـ (شاكر) بك .. لو سمحت لى ..

وما إن رآه حتى ارتسمت على وجهه ملامح الامتعاض ، قائلاً له بضيق :

ـ أنت مرة أخرى ؟ هل ستستمر فى ملاحقتك لى على هذا النحو من مكان لآخر ؟

قال له الرجل مستعطفًا :

ـ أرجوك يا (شاكر) بك .. لقد كانت بيننا معاملات كثيرة سابقًا .. وكنت أفى بالتزاماتى دائمًا .. كما أننى لم أقصر نحوك فى أى شىء كنت تحتاج إليه منى ..

لكن ظروفى هذه المرة ......

قاطعه (شاكر) قائلاً بحدة :

ـ لا شأن لى بظروفك .. كان يتعين عليك أن تقدر

هذه الظروف مسبقًا قبلَ أن تورط نفسك فى مبلغ كبير كهذا .

قال له الرجل متوسلاً :

ـ إن كل ما أطلبه هو أن تسدد عنى جزءًا من القرض الذى اقترضته من البنك ؛ حتى أتمكن من تسوية بقية ديونى .

قال له (شاكر) وهو ينفث دخان سيجاره :

ـ وما الذى يدعونى إلى ذلك ؟ أنا أيضًا لدى التزاماتى وأعبائى المالية .. ثم من أين سوف تسدد لى هذا المبلغ ، أو حتى تسوى بقية ديونك .. بعد أن أوشكت على الإفلاس ؟

قال له الرجل :

ـ هل نسيت أننى لم أتوان عن مساعدتك يومًا ما ، حينما جئت لى متذللاً لتطلب منى أن أمدك بالمال الذى كنت تحتاج إليه ، حينما أفلس مشروعك الصغير ؟

قال له (شاكر) بضيق :

ـ هل ستظل تذكرنى بهذا طوال العمر ؟ أنا أيضًا قدمت لك العديد من الخدمات والمساعدات فيما بعد .. أم أنك قد نسيت ؟

تحدث إليه الرجل قائلاً :

ـ كانت مصالح مشتركة .. وأظن أنك قد حصلت على أرباح كبيرة من وراء ذلك .

صاح (شاكر) قائلاً :

ـ والآن ماذا تريد ؟

قال له الرجل متوسلاً :

ـ إننى بحاجة ماسة لمساعدتك المالية هذه المرة .

ـ وأنا لن أستطيع أن أقدم لك أية مساعدة .. هل فهمت ؟ وهناك شىء آخر .. إذا لم تقم بتسديد الدين الذى أدينك به خلال أسبوع من الآن .. فسوف أضطر لتقديم الشيك الذى لدى للنيابة .

فلا بد أن أضمن حقى قبل أن يشهر إفلاسك .. ويستولى بقية الدائنين على ما تبقى لديك من أموال بعد تصفيتها .

نظر إليه الرجل بغضب قائلاً :

ـ إلى هذا الحد يا (شاكر) .. هل تفعل بى أنا هذا ؟

قال له (شاكر) بحدة :

ـ وأكثر من هذا .. فلا مجال للعاطفة فى التجارة وإدارة الأعمال .

قال له الرجل :

ـ أنا أيضًا رجل أعمال وتاجر مثلك ، لكنى لم أكن قط وغدًا على هذا النحو الذى تبدو عليه .

صاح (شاكر) منفعلاً :

ـ احفظ لسانك ولا تنس أننا ضيفان هنا .. فلو كنت فى منزلى لتصرفت معك تصرفًا آخر .

حنى الرجل رأسه قائلاً فى مرارة :

ـ آسف يا (شاكر) بك .. وأعدك أننى لن أثقل عليك بعد اليوم .

نظر إليه (شاكر) بامتعاض .. ثم توجه إلى مضيفه قائلاً :

ـ معذرة يا (مدحت) بك .. لكنى مضطر للانصراف الآن ..

نظر إليه مضيفه بدهشة قائلاً :

ـ لكننا لم نتحدث معًا بعد .

يمكننا أن نؤجل ذلك للغد .. فلست فى حالة تسمح لى بالتحدث فى أى شىء الآن .

نظر مضيفه إلى الرجل الذى كان يحادثه قائلاً :

ـ هل سبب لك أية مضايقات ؟

قال له (شاكر) بضيق :

ـ ما كان يتعين عليك أن تدعوه إلى منزلك هذه الليلة ..

قال له مضيفه :

ـ لكنى لم أدعه .. ولو أردت أن أطرده .....

ـ على أية حال لم يعد هذا مجديًا الآن .. فأنا أشعر ببعض التوعك منذ الصباح .. وكان يتعين على أن أعتذر عن الحضور منذ البداية .

ودعه مضيفه إلى الباب قائلاً :

ـ أنا آسف يا (شاكر) بك .. وإن شاء الله أراك بصحة جيدة غدًا .

صافحه (شاكر) وانصرف سريعًا .. بينما كان ذلك الرجل يرمقه بنظرة تنم عن الحقد والكراهية .

وتوجه (شاكر عزمى) إلى سيارته .. حيث كان سائقه واقفًا على مقربة منها يتحدث إلى زميل له .

وما إن رآه حتى هرع إلى السيارة ليفتح له بابها الخلفى .

ولكن الرجل الذى كان يتحدث إلى (شاكر) اندفع إلى خارج الفيلا بدوره ، ليقف على إحدى درجات سلمها الرخامى وهو ينادى قائلاً :

- (شاكر) بك .. هل سترحل هكذا سريعًا ؟

التفت (شاكر) خلفه وقد أغضبه صياح الرجل وملاحقته له .. فنظر إليه شذرًا ..

بينما ارتسمت نظرة ذعر فى عين السائق ، حينما رأى الرجل وهو يخرج مسدسًا ويصوبه نحو سيده ..

فاندفع نحوه ليحتضنه محاولاً حمايته وهو يهتف به بدوره قائلاً :

- (شاكر) بك .. خذ حذرك !!

لكن الرصاصة كانت قد انطلقت لتصيب السائق ، بدلاً من (شاكر عزمى) .

نظر (شاكر) إلى سائقه فى ذهول قائلاً :

- (ابراهيم) !

لكن الرجل تهاوى أمامه على الأرض مضرجًا فى دمائه .

بينما اندفع كل المدعوين من داخل الفيلا على إثر إطلاق الرصاصة وقد روعهم ما حدث .

قام بعضهم بالقبض على الرجل الذى بدا مستسلمًا تمامًا بعد أن أحس بفظاعة جرمه .

واندفع صاحب الفيلا نحو السائق قائلاً لـ (شاكر) :

- لم أكن أظن أن هذا الرجل سيرتكب فعلاً جنونيًا وإجراميًا على هذا النحو .. لقد اتصلت بالشرطة .

قال له (شاكر) وهو يجثو على ركبته بجوار السائق المصاب وقد حمله بين ذراعيه :

- هل اتصلت بالإسعاف ؟

أجابه قائلاً :

- نعم .. وهم فى طريقهم إلى هنا .

ثم نظر إلى السائق مستطردًا :

- هل إصابته جسيمة ؟

قال (شاكر) وقد اعترت وجهه سحابة من الأسى :

- أتمنى ألا تكون كذلك .

وما لبث أن أمسك السائق بذراعه وهو يقول له بصوت خافت :

- (ليلى) .. ابنتى (ليلى) !

قال له (شاكر) مشفقًا :

- لا ترهق نفسك بالكلام الآن .. سيارة الإسعاف فى الطريق .

قال له الرجل بصوت متهدج :

- لا جدوى من ذلك .. إننى سأموت .. أشعر بذلك ..

وصيتك ابنتى (ليلى) .. أرجوك أن تتولى أمرها وأن ترعاها .. فقد ماتت أمها بعد عامين من ولادتها .. وبعد موتى لن يكون لها أحد فى هذه الدنيا سوى اللّه وسواك .

وما لبث أن انبعث من الرجل أنين خافت .. ثم هوت رأسه فوق صدره وفاضت روحه إلى بارئها .

عاد (شاكر عزمى) إلى فيلته وهو فى حالة نفسية سيئة ..

لقد تركت وفاة سائقه فى نفسه أثرًا عميقًا .. فقد ضحى بنفسه من أجل إنقاذ حياته .. ولقى حتفه وهو بين يديه .

إنها تضحية عظيمة .. لم يكن يتصوَر أن أحدًا يمكن أن يقدم على القيام بها .. وظلت كلمات الرجل قبل وفاته تتردَد فى أذنه وهو يوصيه بابنته الصغيرة .. التى تيتمت وهى ما زالت فى الخامسة من عمرها .. وفقدت الأب بعد أن فقدت الأم .

قالت له زوجته بعد أن علمت بما حدث :

ـ مسكين (ابراهيم) .. رحمه اللّه .. لقد كان هذا الرجل وفيًا ومخلصًا لنا حتى الرمق الأخير من حياته .

قال (شاكر) وهو يدفن رأسه بين يديه :

ـ إن ما فعله يتجاوز حدود الوفاء والإخلاص ..

قالت زوجته متألمة :

ـ مسكينة ابنته !

نظر إليها زوجها قائلًا :

ـ منذ اليوم ستصبح هذه الطفلة بمثابة الابنة لنا .. ستنتقل إلى الفيلا .. وسنتولى تربيتها كما لو كانت ابنتنا تمامًا .. فهذه هى وصيةَ الرجل الأخيرة لنا .

قالت له زوجته موافقة :

ـ هذا أقل ما يمكننا أن نفعله .

ـ وأين هى الطفلة الآن ؟

أجابته زوجته قائلة :

ـ إنها فى حجرة أبيها فى الحديقة .. مسكينة .. لا بد أنها تنتظر عودته الآن .

سأرسل الخادمة لإحضارها .

ـ بل سأذهب لإحضارها بنفسى .

ونهض (شاكر) ليغادر حجرته فى طريقه لإحضار ابنة سائقه إلى الفيلا ، حينما فتح باب الحجرة فجأة ، ودخل ابنه الصغير وهو يهتف قائلًا :

- بابا ! لماذا تأخرت ؟ هل أحضرت لى ما طلبته منك ؟

لكن الأب نظر إليه واجمًا دون أن يجيبه بشىء .

بينما أسرعت الأم لتقول لطفلها :

- دع أبيك الآن يا (هانى) .. فهو متعب قليلاً .

غادر الأب الحجرة .. وقد ظلَ الطفل يتابعه باستغراب :

- ثم التفت إلى أمه قائلاً :

- ماذا حدث يا أمى ؟ لماذا لا يجيبنى أبى ؟

أجلسته الأم بجوارها وهى تحيط كتفيه بذراعها قائلة :

- هناك شىء يجب أن تعرفه يا (هانى) .. لقد مات عم (إبراهيم) .. أبوك حزين من أجل موته .

نظر إليها الابن فى دهشة قائلاً :

- عم (إبراهيم) مات .. كيف ؟

قالت له الأم وهى تشفق على ابنها من هذا الحديث المقبض عن الموت :

- هذه إرادة الله يا بنى .

وما لبثت أن اعترت سحابة من الحزن وجه الطفل الذى قال متأثرًا :

- إذن فهو لن يصحبنى إلى المدرسة بعد الآن ..

ثم استطرد قائلاً :

- لا بد أن (ليلى) ستحزن كثيرًا من أجل ذلك .

سألته أمه قائلة :

- هل تحب (ليلى) يا (هانى) ؟

أجابها الطفل سريعًا قائلاً :

- نعم .. إننى أحبها كثيرًا .

عادت الأم لتسأله قائلة :

- وهل تعدها بمثابة الأخت لك ؟

قال لها الطفل ببراءة :

- لا أدرى .. ولكنى أحب أن ألعب معها كثيرًا .

- ما رأيك لو انتقلت لتعيش معنا هنا فى الفيلا بدلاً من تلك الحجرة التى كانت تعيش فيها مع أبيها ؟

قال لها الابن سريعًا .. وقد اختفت سحابة الحزن التى خيمت على وجهه ، لتحل محلها مظاهر السعادة والسرور :

- هل يمكن أن يحدث هذا حقًا ؟

أجابته الأم قائلة :

- نعم .. وسوف تذهب معك إلى المدرسة أيضًا .

- وهل ستسمحين لنا أن نلعب معًا ؟

- نعم .

- لكنك كنت تعترضين على ذلك من قبل .

قالت له الأم وقد اغرورقت عيناها بالعبرات :

- لن أعترض على ذلك بعد الآن .

احتضن الابن أمه بسعادة قائلاً :

- إننى سعيد لذلك يا أمى .

احتوته الأم بين ذراعيها .. وهى تقبل رأسه بحنان .. وقد شرد تفكيرها فى تلك الطفلة اليتيمة التى فقدت أبويها .

* * *



٢ - ومرّت السنون ..

طرق (شاكر) باب الحجرة التى كان سائقه يقيم بها فى الجزء الخلفى من حديقة الفيلا .

حيث كانت ابنته الصغيرة جالسة فوق أريكة صغيرة ، وقد وضعت أمامها صينية بها بعض الأطعمة فى انتظار حضور أبيها .

وما لبث أن غلبها النوم بعد أن طالت غيبة الأب .

تنبهت الابنة على صوت الطرقات .. فظنت أن أباها قد حضر .

فنهضت من فوق الأريكة وهى شبه نائمة ، لتفتح باب الحجرة وقد أخذت تفرك عينيها قائلة :

- لماذا تأخرت يا أبى ؟ لقد أعددت لك الطعام ، و .....

لكنها فوجئت بـ (شاكر عزمى) واقفًا أمامها .

كانت هذه هى المرة الأولى التى يأتى فيها صاحب الفيلا إلى هذه الحجرة .

كما أنها المرة الأولى التى تراه فيها أيضًا وهو مبتسم .

إذ كانت تراه دائمًا عابسًا متجهمًا .. على نحو كان يجعلها تخشاه وتخاف الاقتراب منه .

ابتسم لها (شاكر) فى حنان وهو يمسح بيده على شعرها قائلاً :

- هل أيقظتك من النوم يا حبيبتى ؟

سألته فى براءة قائلة :

- أين أبى ؟

أطرق (شاكر) برأسه إلى الأرض وهو لا يدرى بمَ يجيبها .

ثم ما لبث أن حملها بين ذراعيه وهو يدخل إلى الحجرة .. وقد لمحت عيناه صينيةَ الطعام .

أحست الطفلة بالرهبة ، وهى تجد نفسها محمولة بين ذراعى الرجل الذى تخشاه .

لكنها ما لبثت أن استكانت بين ذراعيه وهو يجلسها فوق ركبته قائلاً :

- ألم تتناولى عشاءك بعد ؟

قالت له الطفلة :

- نعم .. لقد كنت فى انتظار أبى حتى نتعشى معًا .

اعترته الحيرة وهو يبحث عن كلمات يقولها لها .

بينما انتاب (ليلى) إحساس مبهم بالقلق والاضطراب فعادت لتسأله قائلة :

- أين أبى ؟

قال لها (شاكر) :

- أبوك لن يحضر إلى المنزل هذه الليلة .

قالت له (ليلى) بانزعاج :

- لماذا ؟

- لأنه .. لأنه مسافر .. لقد طلبت منه أن يسافر إلى إحدى البلاد ليقوم ببعض الأعمال هناك .. لذا فإنه سيغيب عنك لبعض الوقت .

قالت له ببراءة :

- لكنه لم يخبرنى بذلك .

لأننى كلفته بالسفر فجأة فلم يجد الوقت ليخبرك .. وهأنذا قد جئت لأخبرك بذلك بنفسى .

قالت له بنبرة حزينة :

- إذن لن أرى أبى وقتًا طويلاً .

قال لها (شاكر) وقد انتابه إحساس بالأسى على نحو لم يعرفه من قبل :

ـ لقد طلب منى والدك أن آخذك معى إلى الفيلا لتبقى معنا حتى يعود من السفر .

قالت له الطفلة ببراءة :

ـ وهل ستسمح لى أن أبيت معكم هناك ؟

ابتسم قائلاً :

ـ نعم يا حبيبتى .

ـ وأن ألعب مع (هانى) ؟

مسح بيده على شعرها قائلاً :

ـ ستلعبين مع (هانى) وستذهبين معه إلى المدرسة .. وسأرعاك كابنة لى تمامًا .

ارتسمت ملامح السرور على وجهها للحظة .. لكن ملامح الخوف والتردد عادت لتخفى مظاهر السرور التى ارتسمت على هذا الوجه البرىء للحظة وهى تقول له :

ـ ولكن ربما غضب أبى لو عاد ولم يجدنى هنا .

قال لها (شاكر) وهو يربت على ظهرها مطمئنًا :

ـ قلت لك إن أباك هو الذى طلب منى أن أفعل ذلك .

وأمسك بيدها قائلاً :

ـ هيا بنا .

نظرت إلى الطعام الموضوع على المائدة قائلة بتلك البراءة الطفولية التى ترتسم على وجهها :

ـ لكنى جوعانة .

قال لها وهو يحملها بين ذراعيه :

ـ دعك من هذا الطعام .. فسوف أجعلهم يعدون لك فى الفيلا طعامًا أفضل وأشهى .

واصطحب الطفلة المسكينة معه إلى الفيلا دون أن تدرى شيئًا عن واقعها الأليم .

وأنها أصبحت بلا أب بعد أن فقدت من قبل تلك الأم التى اختفت ملامحها من مخيلتها ..

وكان من الصعب أن يخبرها أحد بتلك الحقيقة القاسية .. فطفولتها البريئة لم تكن لتحتمل أن تواجه بذلك الواقع الأليم .

وبرغم الرعاية التى أولاها إياها (شاكر) وزوجته خلال الأيام والأشهر التالية .. ومعاملتهما لها كما

لو كانت ابنة لهما .. إلا أنها لم تتوقف عن السؤال دائمًا عن ذلك الأب الغائب .. وعن موعد عودته من سفره الذى طال .

مرّ عامان .. قلت خلالها تساؤلات الابنة عن عودة أبيها .. لكنها لم تنقطع .

لكن لم يكن من الممكن إخفاء الحقيقة عنها إلى الأبد .. فقد سمعت ذات يوم حديثًا يدور بين (شاكر عزمى) وزوجته ، تناولا فيه أمر وفاة الأب .. وبرغم أن طفولتها لم تكن لتهينها لذلك النوع من الأحزان التى يحسها الكبار عند تلقيهم أو مفاجأتهم بنبأ كهذا .. إلا أنها تصرفت على نحو يتجاوز تصرفات الكبار .

فقد أخفت حزنها بداخلها .. وانسحبت من داخل الفيلا لتنزوى بنفسها فى أحد أركان الحديقة .. وقد انسابت العبرات من عينيها بغزارة .

وكان (هانى) ابن (شاكر عزمى) قد عاد من مدرسته فى هذا اليوم .

وكالعادة كان أول سؤال يسأله قبل أن يبدل ثيابه ، أو يتناول طعامه هو « أين ليلى » ؟

كان قد اعتاد أن يصحبها معه إلى المدرسة ، عندما كانا معًا فى المرحلة الابتدائية ليعودا معًا أيضًا ، ويكملا يومهما داخل الفيلا فى لعب ومرح ومذاكرة .

أما بعد أن انتقل إلى المرحلة الإعدادية ، وإلى مدرسة أخرى غير التى كان فيها من قبل .. فلم يعد يحظى بوقت أطول مع صديقته الصغيرة التى أصبح شديد الارتباط بها .

غادر (هانى) الفيلا إلى الحديقة ليبحث عن (ليلى) بعد أن فشل فى العثور عليها بالداخل .

وما لبث أن رآها منزوية فى ذلك الركن من الحديقة وهى تبكى .

فاقترب منها وقد علت أمارات الحزن وجهه ليسألها قائلاً :

ـ لماذا تبكين ؟

قالت له ببراءة :

ـ لقد مات أبى !

سألها (هانى) قائلاً :

ـ من أخبرك بذلك ؟

- لقد سمعت بابا (شاكر) وهو يقول ذلك لماما (فوزية) .

ثم انخرطت فى بكاء حار وقد غمرت العبرات وجهها .

أحس الصبى بالأسى الشديد من أجلها .. فربت على ظهرها قائلاً بحنان طفولى :

- لاتبكى يا (ليلى) .. فأنا لا أحب أن أراك تبكين .

★ ★ ★

مرت السنون .. وقد تلاشت معها الذكريات الحزينة ، لتحل محلها مشاعر أخرى نمت مع نمو الطفلين اللذين تحولا إلى شابين .. وقد ازداد تعلق كل منهما بالآخر .. وتحولت تلك الصداقة البريئة إلى عاطفة قوية .. جمعت بينهما بحيث لم يعد أحدهما قادرًا على الاستغناء عن وجود الآخر فى حياته .

والتزم (شاكر عزمى) بالوصية التى أوصاه بها والد الفتاة ، فصار يعاملها كما لو كانت ابنة له .. وكان حريصًا على تلبية كل احتياجاتها ، على النحو الذى لم يكن ليستطيع أن يقوم به الأب الحقيقى .

وكذلك كانت معاملة زوجته لها .. التى ظلت ترعاها كابنة لها .

★ ★ ★

تسلل (هانى) من خلفها فى أثناء جلوسها على الأريكة الأرجوحة ، وهى تقرأ إحدى الروايات .. لينتزع الرواية من يدها على نحو أفزعها .

وما إن التقطت أنفاسها من تأثير المفاجأة حتى قفزت من فوق الأريكة ، وهى تصيح فيه بغضب قائلة :

- (هانى) .. ألم أحذرك من هذه التصرفات السخيفة من قبل ؟

ضحك قائلاً :

- هل نسيت ما فعلته معى بالأمس ؟

- لقد اعتذرت لك .

قال لها مداعبًا وهو يتظاهر بالاستعلاء :

- ومن قال لك إننى قد قبلت اعتذارك ؟

قالت له محتجة :

- أنت حر إذا كنت تقبله أم لا .. ولكن أعد لى روايتى أولاً .

ابتسم قائلاً :

- توسلى لى قليلاً .

قالت له غاضبة :

- (هانى) .. كفاك تهريجًا !

ضحك قائلا وهو يركض :

- حسن .. إذا كنت تريدين روايتك فحاولى أن تلحقى بى .

اندفعت الفتاة وراءه وهى تحاول اللحاق به ، وقد أخذت تضحك فى مرح .

وكادت أن تمسك به .. لكنه أفلت منها واندفع يركض نحو البوابة الخارجية للفيلا .. حيث اصطدم بأحد الأشخاص فى أثناء دخوله إليها فنظر إليه قائلاً :

- ما هذا ؟

نظر إليه (هانى) فى خجل قائلاً :

- عمى ؟

ابتسم عمه وهو ينظر إليهما قائلاً :

- كنت أظنكما قد كبرتما على هذا النوع من اللعب .

واقترب من (ليلى) قائلاً :

- كيف حالك يا (ليلى) ؟

قالت له وقد أطرقت برأسها فى خجل :

- الحمد لله يا عمى .

التفت إلى ابن أخيه قائلاً :

- وأنت يا (هانى) ؟

- أنا بخير يا عمى .

سأله عمه :

- هل والدك موجود ؟

أجابه (هانى) سريعًا :

- نعم .. إنه فى حجرة المكتب سأصحبك إليه .

لكن عمه وضع يده على كتفه ليستوقفه قائلاً وهو ينظر إليهما بخبث :

- كلا .. أكملا لعبكما .

وتركهما ليواصل طريقه إلى داخل الفيلا .

نظرت إليه (ليلى) وقد امتزجت مشاعر الغضب بالخجل على وجهها قائلة :

- هل أعجبك هذا ؟ ماذا سيقول عنا الآن ؟

حدق فيها (هانى) للحظة وقد بدا أنه لم يتخلص من حرجه بعد .. ثم ما لبث أن قال لها :

- سيقول إننا مازلنا نتصرف كالأطفال .. وأننا لم ننضج بعد .

نظرت (ليلى) إليه قائلة :

- ربما كان محقًا في ذلك بالنسبة لك .

نظر إليها بغيظ قائلاً :

- هكذا ؟ إذن سأظل طفلاً حتى النهاية .. ولن أرد لك روايتك .

اندفعت نحوه قائلة :

- إياك أن تفعل ذلك .. كفاك سخفًا .

لكنها تعثرت فى أثناء ركضها خلفه .. وسقطت على الأرض .

نظر (هانى) إليها ضاحكًا ، وهو يقول :

- حسن .. أنت تستحقين ذلك .

لكنها أمسكت بقدمها متألمة وهى تصرخ قائلة :

- (هانى) .. إننى لا أستطيع أن أقف على قدمى !

★ ★ ★

٣- وكبـر حبنـا ..

انزعج (هانى) بشدة حينما رآها تتألم على هذا النحو .. فاندفع نحوها قائلاً :

- (ليلى) .. ماذا أصاب ساقك ؟

قالت له وهى تتعلق بكتفه :

- إنها تؤلمنى بشدة .

- لا تتحركى من مكانك .. سأخبر أمى وأستدعى لك طبيبًا .

لكنها سارعت بانتزاع الرواية من يده ، وهى تنهض على قدميها دون أن يبدو عليها أىّ أثر للألم .

وضحكت قائلة :

- لقد خدعتك !

لكنه نظر إليها غاضبًا قائلاً بانفعال :

- إياك أن تفعلى ذلك مرة أخرى .

أحست بالارتباك لدى رؤيتها لهذا التعبير الذى ارتسم على وجهه ، وقالت له بصوت مضطرب :

ـ لم أكن أظن أنك ستأخذ الأمر بجدية هكذا .. فقد كنا نضحك معًا منذ قليل .

قال لها وهو يحاول التغلب على انفعاله :

ـ لقد كاد قلبى أن ينخلع خوفًا من أن تكون إصابتك حقيقية .

ـ هل هذا بسبب خوفك من الإحساس بالذنب ؟

ـ بل .. لأننى .. لأننى لا أستطيع أن أتصوَّر أن أراك متألمة .

قالت له بدلال :

ـ ماذا يعنى هذا ؟

ـ أنت تعرفين ما الذى يعنيه جيدًا .. فمشاعرى غير خافية عنك .

قالت له وهى مضطربة وقد تضرج وجهها بالاحمرار :

ـ (هانى) .. هل ستعود إلى هذا الحديث مرة ثانية ؟

ـ إن الحقيقة لا يمكن إنكارها .. وأنت تعرفين أننى منذ أن وعيت هذه الدنيا وأنا أحبك .

قالت له بصوت خافت وقد أحست بارتجافة فى جسدها :

ـ لقد عشنا معًا فى هذا المنزل كما لو كنا أخوين .

قال لها (هانى) معترضًا :

ـ هذا غير حقيقى .. لقد تربينا معًا حقًا .. لكن مشاعرنا لم تكن مشاعر أخوين قط .

ـ على الأقل هكذا يجب أن نكون .

ـ لماذا ؟ لِمَ ننكر حبنا ونحرمه على أنفسنا ؟

ـ وما جدوى هذا الحب ؟

ـ لا معنى لهذا السؤال .. فالحب هو الحب .. ولا يحتاج من المرء أن يحلله ويبحث عن جدواه .

ـ أعنى .. ما هى نهايته ؟

ـ هذا السؤال أيضًا لا معنى له .. فمن المفترض ألا تكون هناك نهايةَ للحب .. بل أن يظل قائمًا ومستمرًا .. ما دامت الحياة قائمة ومستقرة .

ـ دعك من هذه المراوغةَ وتلك الفلسفة .. فأنت تعرف ما الذى أعنيه جيدًا .

ابتسم (هانى) قائلاً :

ـ بالطبع .. وأعرف أيضًا أننى لا يمكن أن أتصور نفسى زوجًا لفتاة أخرى غيرك .. فلابد أن يتوج حبنا بالزواج .

تسارعت دقات قلبها وهى تنظر إليه فى وجد قائلة :

- حقًا يا (هانى) ؟

ابتسم وهو يمسك بيدها قائلاً فى حنان :

- هل تشكين فى ذلك ؟

★ ★ ★

دخل (صلاح) إلى حجرة أخيه ، الذى كان منهمكًا فى مراجعة بعض الأوراق الموضوعة على مكتبه .

حياه قائلاً :

- صباح الخير يا (شاكر) .

نزع (شاكر) العوينات الطبية عن عينيه ، وهو ينظر إلى أخيه قائلاً :

- صباح الخير يا (صلاح) .. متى جئت إلى (القاهرة) ؟

قال له أخوه وهو يجلس إلى أحد المقاعد :

- منذ ساعتين تقريبًا .

غادر (شاكر) مقعده وهو يضع عويناته فوق المكتب ليجلس بجوار أخيه قائلاً :

- ترى ما سر هذه الزيارة المفاجئة ؟

قال له (صلاح) معاتبًا :

- وهل أنا بحاجة لسبب كى آتى لزيارة أخى فى منزله ؟

هز (شاكر) كتفيه قائلاً :

- كلا بالطبع .. لكننى لم أرك منذ فترة طويلة .. وأعتقد أنك قد اكتفيت بتلك الاتصالات الهاتفية التى تحدث بيننا من آن لآخر كبديل عن رؤيتك لأخيك .

- لقد جئت إلى منزلك مرتين من قبل خلال هذا الشهر .. لكننى لم أجدك .. ألم يخبرك أحد بذلك ؟

- آه .. لقد أخبرونى بالطبع .. لكنك تعلم جيدًا أننى عندما لا أكون متواجدًا فى المنزل .. فلا بد أن أكون فى عملى بالشركة .. وقد كنت أنتظر منك أن تحاول أن تلتقى بى هناك .. أو على الأقل تنتظر عودتى إلى المنزل .

قال له (صلاح) متهكمًا :

- ما دمت مهتمًا هكذا برؤية أخيك .. فلماذا لم تفكر فى أن تقتطع بعض الساعات من وقتك الثمين ، وتأتى لزيارتى فى (الإسكندرية) ؟

- لقد كنت مشغولاً للغاية خلال الأشهر الأخيرة الماضية حتى إننى لم أكن أجد وقتًا لتناول الغذاء مع أسرتى هنا .

قال له (صلاح) معاتبًا :

- بالنسبة لى فإننى أقدر ذلك .. ولكن ماذا عن أمك ؟ هل يمكن أن تكون مشغولاً عن رؤيتها إلى هذا الحد الذى يمنعك من أن تراها ؟ ولو لبضع ساعات قليلة خلال ثلاثة أشهر كاملة ؟

- أعرف أننى مذنب فى حقها .. ولكن ماذا أفعل ؟! لقد تضخمت مسئولياتى .. ولا بد لى من أن أشرف على كل شىء بنفسى .. فالشركة ......

قاطعه أخوه قائلاً :

- لا تحدثنى عن الشركة .. أو المسئوليات .. فلا يوجد عذر يمنعك من رؤية والدتك المسنة والاطمئنان عليها .

إن والدتنا قد بلغت الثمانين من عمرها .. ولم يعد متبقيًا لها من العمر الكثير .. فلا تضن عليها بقدر من وقتك وعاطفتك بعد أن وصلت إلى هذا العمر .. وبعد أن منحتك حياتها كلها .

أحس (شاكر) بالضيق مما قاله أخوه .. فقال له متأففًا :

- هل هذا هو ما دفعك إلى الحضور لمنزلى ؟

- فى الحقيقة لقد جئت إلى (القاهرة) لإنهاء بعض الأعمال .. لكنى وجدتها فرصة لزيارتك .. وتذكيرك بوجودنا فى حياتك .. وبواجبك نحو أمك .

قال له (شاكر) منفعلاً وهو ينهض من فوق مقعده :

- إننى أعرف واجبى تجاه أمى جيدًا .. ولست بـ... لمن يذكرنى بذلك .

ولا تنس ... أخوك الكبير .. فلا يصح أن تستخدم معى لهجة التأنيب هذه من آن لآخر .

نهض (صلاح) بدوره قائلاً :

- إننى لا أقصد التأنيب بالطبع .. لكن أمك بحاجة لأن تراك فلا تحرمها من ذلك .

قال له (شاكر) وقد ازداد انفعاله .. محاولاً التغلب بهذا الانفعال على إحساسه بالذنب :

- لقد عرضت عليها من قبل أن تأتى لتعيش معى هنا فى منزلى .. لكنها هى التى رفضت .

- أنت تعرف والدتك جيدًا .. فلم تكن لتترك منزلها فى (الإسكندرية) الذى يربطها به ، وبذكرى والدك رباط قوى ، وتذهب إلى أى مكان آخر .

- وأنـا أيضـًا لـدى أعمـالى ومصـالحى هنـا فى (القاهرة) .. وليس من المعقول أن أتركها للذهاب إلى (الإسكندرية) و .....

قاطعه (صلاح) قائلاً :

- وأنا لا أطلب منك أن تتخلى عن أعمالك ومصالحك .. بل كل ما أطلبه هو أن تأتى لزيارة أمك العجوز من آن لآخر .. لكى تطمئن عليها وتطمئن عليك .

- على أية حال إننى أطمئن عليها أسبوعيًا بوساطة الهاتف .. كما أننى مطمئن عليها لوجودك معها .

حدجه (صلاح) بنظرة عتاب قائلاً :

- هل تعتقد أن هذا كاف ؟

هزّ (شاكر) رأسه قائلاً :

- حسن .. سآتى لزيارتها غدًا .

ابتسم (صلاح) وهو يربت براحتيه على ذراعى أخيه قائلاً :

- هذا هو ما كنت أتوقعه منك .

وفى تلك اللحظة سمعا طرقات على الباب ، حيث فتح باب الحجرة ودخلت (ليلى) وهى تحمل صينية صغيرة ، عليها كوب من العصير لتقدمه إلى (صلاح) قائلة :

- تفضل يا عمى .

ابتسم (صلاح) قائلاً :

- ما هذا يا (ليلى) ؟ أنت التى تحضرين لى العصير بنفسك ؟

- ومـا الغريب فى ذلك ؟ إنك لا تدرى كم أسعد برؤيتك .

- بارك اللّه فيك .

وأمسك بكوب العصير وهو يتأملها .. ثم التفت إلى أخيه قائلاً :

- لقد أصبحت (ليلى) عروسًا جميلة يا (شاكر) .

ابتسم (شاكر) وهو ينظر إليها قائلاً :

- نعم .. لقد كبرت طفلتنا الصغيرة .

تضرج وجهها بالاحمرار على إثر هذا الحديث .

بينما استطرد (صلاح) قائلاً :

- ألن تأتى لقضاء إجازة الصيف لدينا هذا العام فى (الإسكندرية) ؟

قالت (ليلى) :

- أتمنى ذلك .. لو كان وقت بابا (شاكر) وماما (فوزية) يسمح بذلك .

قال (صلاح) مداعبًا :

ـ لا تعتمدى على بابا (شاكر) .. فلا أظن أنه سيكون لديه وقت لذلك بأية حال من الأحوال .

ونظر إلى أخيه قائلا :

ـ ما رأيك يا (شاكر) لو جاءت (فوزية) والأولاد لقضاء إجازة الصيف لدينا ؟

فى الحقيقة لقد رتبت لهم إجازة صيف فى (الغردقة) .. لكن لو كانوا يريدون الذهاب إلى (الإسكندرية) فلا مانع لدى .

نظر (صلاح) إلى (ليلى) قائلاً :

ـ ما رأيك يا (ليلى) ؟ (الغردقة) أم (الإسكندرية) ؟

قالت له باستحياء :

ـ بالنسبة لى فإننى أفضل (الإسكندرية) .. على الأقل حتى أرى جدتى (أمينة) .

تأملها (صلاح) بإعجاب قائلا :

ـ وجدتك أيضًا تشتاق لرؤيتك .

ونظر فى ساعته وهو يستطرد قائلاً :

ـ حسن .. أظن أنه يتعين على أن أنصرف الآن .

نظرت إليه (ليلى) قائلة :

ـ ألا تنتظر معنا قليلا ؟

وقال (شاكر) :

ـ انتظر حتى تلتقى بـ (فوزية) ونتناول الغداء معًا .

قال (صلاح) :

ـ لا أظن أننى أستطيع ذلك .. فلدى أعمال مهمة يتعين على إنجازها .. سأراكم قريبًا .

صاحبته (ليلى) حتى الباب قائلة :

ـ سلم لى كثيرًا على جدتى .

ابتسم لها قائلا :

ـ سأبلغها سلامك .

وفى تلك اللحظة حضر (هانى) الذى حاول استبقاء عمه لبعض الوقت ، لكنه أصر على الانصراف ، وقد دعاه بدوره للحضور إلى (الإسكندرية) .

★ ★ ★



٤ـ مشـاعر متضـاربة ..

ذهب (شاكر) إلى منزل والده فى (الإسكندرية) كما وعد أخاه .

حيث استقبله الأخير بترحاب قائلاً :

ـ أشكرك لأنك قد وفيت بوعدك .

قال له (شاكر) محتجًا :

ـ هل تشكرنى على زيارتى لأمى ؟

وخفض صوته قائلاً :

ـ أين هى ؟

ـ فى حجرتها .. اذهب إليها ريثما أطلب من الخادم أن يعد لك مشروبًا مثلجًا .

دخل (شاكر) على أطراف أصابعه إلى حجرة أمه العجوز .. حيث كانت جالسة أمام النافذة المفتوحة التى تطل على البحر فوق مقعدها المتحرك .

ارتبك (شاكر) كما لو كان طفلاً صغيرًا ينتظر عقاب والدته .

وما لبث أن اقترب منها قائلاً بصوت هامس :

ـ مساء الخير يا أمى .

التفتت إليه وقد فوجئت برؤيته أمامها .. فعلت الفرحة وجهها وهى تقول :

ـ (شاكر) !

انحنى (شاكر) ليقبل يدها .. قائلاً :

ـ أوحشتنى يا أمى .

قالت له وهى تحاول أن تخفى فرحتها برؤيته :

ـ لو كنت قد أوحشتك حقًا .. لما غبت عنى كل هذا الوقت .

ثلاثة أشهر يا (شاكر) .. ثلاثة أشهر لا أراك خلالها ولو مرة واحدة .. هل قسا قلبك على أمك العجوز إلى هذا الحد ؟

جلس (شاكر) إلى جوارها قائلاً :

ـ ألم أخبرك فى الهاتف بالظروف التى كنت أمر بها خلال هذه الفترة ؟ إن عملى يستغرق كل وقتى .. حتى إننى أغادر المنزل فى ساعة مبكرة من الصباح .. ولا أعود إليه إلا فى وقت متأخر .

قالت له أمه معاتبة :

- أى عمل فى الدنيا لا يكون أهم لدى الابن من رؤية أمه ، والاطمئنان عليها .. خاصة إذا كانت قد وصلت إلى هذه السن التى وصلت إليها .. ولم يعد متبقيًا لها من العمر إلا القليل .

قبل (شاكر) كتفها قائلاً :

- أطال الله فى عمرك يا أمى .

دخل (صلاح) إلى الحجرة قائلاً :

- دعونا الآن من حديث العتاب .. المهم أنه قد أتى الآن ليطمئن عليك ويسترضيك .

كان الله فى عونه .. فأنا أعلم أن ظروف عمله قاسية .

قالت له الأم بحنان :

- وهل تسير أحوالك على ما يرام ؟

- الحمد لله .. المهم طمئنينى على صحتك .

- نحمد الله على كل شيء .. لولا رعاية أخيك لى لتدهورت حالتى الصحية كثيرًا .

وصمتت برهة قبل أن تردف قائلة :

- ولو أنى غاضبة عليه .. وحزينة من أجله .

نظر (صلاح) إلى سقف الحجرة وهو يطلق زفرة احتجاج قصيرة .

بينما بادر (شاكر) ليسألها قائلاً :

- لماذا ؟

سألته أمه قائلة :

- كم يبلغ عمر أخيك الآن ؟

هتف (صلاح) :

- هل سنعاود الحديث فى هذا الأمر مرة أخرى يا أمى ؟

قاطعته أمه قائلة :

- اسكت أنت !

ثم استطردت قائلة لـ (شاكر) :

- هيا أجبنى .

قال (شاكر) :

- أظن .. أنه قد بلغ السادسة والأربعين الآن .

- بل سبعًا وأربعين عامًا .. وبرغم ذلك لم يتزوج حتى الآن .

قال (صلاح) :

- لاجدوى من هذا الحديث الآن .. فقد فاتنى القطار وأنت تعلمين ذلك .

- أنت الذى تركته يفوتك .. فقد ظللت ألح عليك دائمًا .

قال (شاكر) :

- وأنا أيضًا .. لقد بحّ صوتى فى الحديث عن هذا الأمر .. وقد عرضت عليه الزواج من فتيات من عائلات كبيرة .. وكان لديه الفرصة ليختار الفتاة التى تناسبه من بينهن .

رمقه (صلاح) بنظرة صارمة وهو يقول له :

- أنت تعرف جيدًا من هى الفتاة التى كانت تناسبنى .

تحاشى (شاكر) نظرة أخيه إليه ، وتجاهل ما قاله وهو يردف قائلاً :

- ومع ذلك فالفرصة لم تضع بعد .. وسبع وأربعون عامًا لا تعد سنًا كبيرة .. فهناك من يتزوجون وهم أكبر منه سنًا .

إذا أردت يمكننى أن .....

قاطعه (صلاح) قائلاً :

- دعنا من هذا الحديث الآن .

قالت له أمه وفى عينيها نظرة أسى :

- لماذا لا تريد أن تريحنى يا بنى .. وتطمئن قلبى نحوك قبل أن أموت ؟

- أطال الله فى عمرك يا حاجة .. لكنى لم أعد راغبًا فى الزواج .

قال له (شاكر) بصوت محتد :

- لماذا لا تريد أن تريح أمك ؟

عاد (صلاح) لينظر إليه تلك النظرة التى تحمل معنى اللوم والعتاب ، ثم تنهد قائلاً :

- ومن الذى يرعاها ؟

- يمكنك أن تتزوج وتأتى بزوجتك إلى هنا .. فالمنزل كبير و .....

قاطعه (صلاح) قائلاً :

- وما أدراك أن تلك التى سأتزوجها سوف تحسن معاملة والدتنا ؟

قالت الأم :

- لا تتخذ منى عذرًا لإحجامك عن الزواج .. فامرأة فى عمرى لا يمكن أن تنزعج من أحد ..

ولا يمكن أن تسبب إزعاجًا لأحد .. على الأقل عدنى أن تفكر فى هذا الأمر .

هزَ (صلاح) رأسه وهو يحاول ترضية أمه قائلاً :

ـ حسن .. أعدك بذلك .

قال (شاكر) :

ـ إذا كان لديك الاستعداد حقًا .. فإننى أستطيع أن أرشح لك سيدة ممتازة .. من عائلة كبيرة .. وتمتلك ثروة لا بأس بها .

ابتسم (صلاح) قائلاً :

ـ ألا ينبغى أن تفكَر فى زواج ابنك الآن ؟

ـ آه .. إنك تحاول أن تغير الحديث .. على أيةَ حال .. أنت حر .

ـ بل إننى أتحدَث بجدية .. يتَعين عليك أن تفكَر فى زواج (هانى) .

ـ وما الذى يدعونى إلى التفكير فى ذلك الآن ؟ إنه ما زال طالبًا .

ـ لكنه سيتخرَج بعد ثلاث سنوات .

ـ إن ما يشغلنى هو التفكير فى مستقبله أولاً .

ـ أظنَ أن مستقبله مضمون .. فبعد تخرجه سيعمل فى المجال الدبلوماسى .. وهذا يعنى أنه سينال وظيفة مرموقة يفخر بها أى شاب .

ابتَسم (شاكر) ابتسامة رضا قائلاً :

ـ نعم .. إن ابنى شاب ممتاز وطموح .. لقد بذلت جهدًا كبيرًا من أجل تنشئته ورعايته .. ليكون على النحو الذى تمنيته دائمًا .. وأنا واثق أن مستقبله سيكون مشرقًا .

ـ وماذا عن (ليلى) ؟

قال (شاكر) وقد بدا أنه تنبه فجأة لشىء كان غائبًا عن تفكيره :

ـ هه ؟ (ليلى) ؟

ابتَسمت الأم قائلة :

ـ حقًا يا (شاكر) ما أخبار تلك الفتاة الرقيقة ذات الوجه الملائكى ؟

ـ إنها بخير .

قال (صلاح) :

ـ ألم تفكَر فى مستقبل هذه الفتاة اليتيمة ؟

ـ من قال هذا ؟ إننى آليت على نفسى رعايتها كابنة لى تمامًا .

وسوف أعمل دائمًا على ضمان مستقبلها .. حتى بعد أن أتولى أمر زواجها من الشخص الذى سأختاره لها بنفسى .

ـ حتى لو كان هذا الشخص .. هو ابنك ؟

هبَّ (شاكر) واقفًا وهو ينتفض قائلاً :

ـ ما هذا الذى تقوله ؟

نظر إليه (صلاح) باستغراب قائلاً :

ـ هل يزعجك الأمر إلى هذا الحد ؟

قال (شاكر) بانفعال :

ـ لا بد أنك قد جننت .

قالت له أمه وهى تحاول تهدئته :

ـ اهدأ يا (شاكر) .. إنه مجرَّد افتراض .

لا أحب أن يفترض شيئًا كهذا .

قال (صلاح) غاضبًا :

ـ لماذا ؟

ـ لماذا ؟ ألا تعرف لماذا ؟ ابن (شاكر عزمى) يتزوج من ابنة .....

أكمل (صلاح) قائلاً :

ـ ابنة سائقه .. (ابراهيم) .. ذلك الرجل المسكين الغلبان .

ـ هأنتذا قد قلتها .

ـ والذى ضحى بحياته من أجلك .

ـ وأنا لم أقصر فى شىء تجاه ابنته بعد موته عملاً بوصيته .. لكن هذا من حيث الرعاية والتربية .. لقد عاملتها أنا وزوجتى كابنة لى تمامًا .. أما أن تتزوج من ابنى .

وصمت (شاكر) برهة وقد بدا كما لو كان قد تنبه لشىء .. ثم أردف قائلاً :

ـ ثم من أوحى لك بتلك الفكرة الغريبة ؟

هم (صلاح) بأن يقول له عن إحساسه بشأن مشاعر الشابين .. لكنه تراجع عن ذلك خوفًا من أن يثير غضب أخيه .. واكتفى بأن يقول له :

ـ إنها مجرَّد فكرة طرأت على بالى .

قال (شاكر) بعصبية :

ـ فكرة حمقاء .. وأرجو أن تحتفظ بها لنفسك ..

ولا تجهر بها أمام الأبناء حتى لا تلفت نظرهم لشىء كهذا .

- حسن .. أظن أن الأمر لم يكن يستحق أن تثار بشأنه كل هذه المناقشة الحامية .

دعنا الآن نتطرق لموضوعات أخرى .

- ما أخبار مصنع البلاستيك الذى تديره هنا ؟

إن العمل فيه يسير بصورة طيبة .

- لقد علمت أنه لا يدر عليك ربحًا يوازى الجهد الذى تبذله من أجله .

- إنه يكفى ويزيد عن الحاجة .

- هذا لأنك قنوع أكثر من اللازم .. لماذا لا تغير نشاط المصنع أو تحاول التوسع ؟ إننى أستطيع أن أشاركك .....

قاطعه (صلاح) قائلاً :

- قلت لك إن الدخل الذى يأتينى منه مناسب لى ويكفينى .

- أنت حر .. لن تتقدم أبدًا وتصبح من رجال الأعمال .. طالما أنك تفتقد الطموح على هذا النحو .

ابتسم (صلاح) قائلاً :

- يكفينا رجل أعمال واحد فى العائلة .

لا تنس أننى لست رجل الأعمال الوحيد فى العائلة .. فهناك عمك وابن خالك (فهمى) .

- أما أنا فأقنع بأن أكون صاحب مصنع صغير .. فضل ونعمة من الله .

- حسن .. إننى سأنصرف الآن .

قالت الأم :

- بهذه السرعة ؟ إنك قد جئت من فورك .

وسأله (صلاح) :

- لماذا لا تنتظر قليلاً ؟

قال (شاكر) :

- لا بد أن أكون فى (القاهرة) قبل الرابعة مساء .. فلدى موعد مهم مع أحد الأشخاص .

قالت له أمه فى تضرع :

- لكننى لم أشبع منك يا بنى .

انحنى (شاكر) على يدها ليقبلها قائلاً :

- سأتصل بك اليوم بالهاتف .. وسوف أحضر لأراك وأقضى معك وقتًا أطول فى القريب العاجل .

قالت له أمه وهى تحتضنه :

- ليتك تفعل ذلك حقًا يا بنى .. فإننى أشتاق إليك كثيرًا .

وصافح (صلاح) قبل انصرافه قائلاً :

- ألن أراك قريبًا فى (القاهرة) ؟

- بالطبع .. انتظر حتى آتى وأوصلك إلى محطة القطار بسيارتى .

لا داعى لذلك .. فقد أحضرت سيارتى معى .

أحس (شاكر) وهو جالس فى سيارته بأنه يفتقد التركيز الكافى ، فقد احتوته مشاعر متضاربة تجاه أمه وأخيه .. وتجاه نفسه .

★ ★ ★



٥- عاطفة جارفة ..

لقد تأثر بتلك العاطفة الدافقة التى أحسها وهو بين أحضان تلك السيدة العجوز .. هذه الأم الطيبة التى أنهكتها السنون وأضعفها المرض .

وانتابه شعور بالذنب لأنه برغم عاطفته نحوها كابن ، لم يستطع أن يمنحها ما تستحقه من حب وتقدير .

فعمله وحياته الاجتماعية التى أقلم نفسه عليها .. باعدت كثيرًا بينه وبين قيامه بواجبه كابن تجاه أمه .. حتى أصبحت عاطفته شحيحة تمامًا نحوها .. وغدا يكتفى بتلك الزيارات السريعة التى يقوم بها من آن لآخر .. لكى يراها بصورة عابرة .. تاركًا أخاه الذى حرم نفسه من الزواج من أجل رعايتها ليقوم عنه بالعبء الأكبر .

وسرعان ما نفض عن نفسه ذلك الإحساس الثقيل بالذنب قائلاً :

- ماذا أفعل ومسئولياتى كثيرة ومتعددة ؟ هل كنت أترك أعمالى ومصالحى لأبقى بجوارها فى (الإسكندرية) ؟ لا يمكن لأحد أن يقر ذلك .. لقد عرضت عليها أن تأتى لتعيش معى فى منزلى وتكون تحت رعايتى .. وهى التى رفضت .

كما أن (صلاح) أصر على أن يتولى هو تلك المسئولية .

إذن فقد قمت بما كان يتعين على أن أفعله .. ولا داعى لأن أثقل على نفسى بذلك الإحساس الثقيل بالذنب فى كل مرة أحضر فيها لزيارتها .

وحاول أن يسترخى فى مقعده قائلاً لسائقه :

- سأحاول أن أغفو قليلاً .. إذا نمت أيقظنى حينما نقترب من (القاهرة) .

أجابه السائق قائلاً :

- حاضر يا فندم .

لكن النوم عانده .. وما لبث أن تنبه من غفوته وهو يتساءل قائلاً :

- ترى .. هل كان ما قاله (صلاح) بشأن (هانى) و (ليلى) مجرد فكرة طرأت على ذهنه ؟ أم أنه لاحظ شيئاً لم يره هو بشأن الصلة التى تجمع بينهما ؟

وحاول أن ينفض عن نفسه هذه الشكوك قائلاً :

- كلا .. لا يمكن أن تكون هناك صلة ما .. أكثر من صلة الأخوة .. فقد رباهما على ذلك .. وغرس فيهما ذلك الشعور منذ الصغر .

وكان يوصى (هانى) دائماً أن يعامل الطفلة كما لو كانت أختاً له .

وإن هذا ما يجب أن يعاملها به بعد أن فقدت أبويها ، وأصبحت يتيمة لا ملجأ لها سوى هذا المنزل الذى يضمهما .

لكن سرعان ما عاودته الهواجس وهو يقول لنفسه :

- لكن الطفلة لم تبق طفلة كما كانت .. بل أصبحت فتاة شابة وجميلة أيضاً .

وكذلك (هانى) .. لم يعد ذلك الطفل الصغير الذى يسهل توجيهه والتحكم فى تصرفاته .

لقد أصبح شاباً يافعاً .

ولا يمكن التحكم فى مشاعر الشباب أو السيطرة عليها .

ثم إنه بحكم أعماله ومسئولياته التى زادت أصبح يتغيب كثيراً عن المنزل .. وحتى عندما يعود إليه فإنه يعود مرهقاً .. متلهفاً على النوم والراحة .

مما جعل دوره كأب وكرب أسرة يتراجع تدريجيًا ليترك هذا الأمر فى يد زوجته كلية .

فلم يعد قادرًا على أن يرقب ما يدور حوله داخل هذا المنزل وخارجه ، لكن لا بد أنه قد رأى أو أحس بذلك التقارب الشديد بين ابنه و (ليلى) .. والذى ازداد عما كان عليه وهما طفلان .

ترى .. هل ما زال (هانى) ينظر إلى هذه الفتاة كأخت له كما كانا من قبل ؟

أم أن مشاعره نحوها قد اتخذت وجهة أخرى ؟

وإذا كان ذلك صحيحًا .. فإلى أين يمكن أن تقوده هذه المشاعر ؟

أيمكن أن يفكر فى الزواج من هذه الفتاة حقًا كما قال أخوه ؟

إن هذا مستحيل .. ولا يمكن أن يسمح بحدوثه .

نعم .. إنه يعرف ابنه جيدًا .. إنه يشبهه تمامًا .. فهو شاب ذكى وطموح .

عقله يسبق قلبه .. وتطلعاته تسبق عواطفه .

حتى لو كان يشعر ببعض الميل تجاه الفتاة ..

فإنه لا يمكن أن ينساق وراء مشاعره إلى حد التفكير فى الزواج منها .

إن الحياة التى يحلم له بها ، تتعارض كلية مع وجود فتاة كهذه فيها .

على أية حال .. إنه لن يسبق الأحداث .. فربما كان الأمر مجرد وهم طرأ على تفكيره بعد ما قاله له أخوه .

وحتى لو كان قد حدث شىء ينم عن وجود عاطفة حمقاء كهذه بينهما .. فهو ما زال قادرًا على أن يعيد الأمور إلى نصابها الصحيح .

لكنه لم يستطع أن يتغلب على قلقه تمامًا طوال الطريق .

وما إن أنهى لقاءه مع ذلك الشخص الذى جاء ليتحدث معه بشأن العمل ، حتى عاد إلى منزله حيث استقبلته زوجته بترحاب ، وهى تسأله عما فعله فى يومه ، وعن أخبار والدته وأخيه ، فرد عليها بإجابات مقتضبة وسريعة .

وما لبث أن سألها :

ـ أين (هانى) و (ليلى) ؟

أجابته زوجته قائلة :

ـ لقد ذهبا إلى النادى .

قال لها محتدًا :

ـ إلى الآن فى النادى ؟

نظرت إليه زوجته باستغراب قائلة :

ـ وما الغريب فى ذلك ؟ إنهما يذهبان إلى النادى دائمًا ويتأخران إلى وقت أطول من ذلك .

ـ أظن أنه يتعين عليهما أن يقللا من خروجهما معًا بعض الشىء .

قالت له وقد ازداد استغرابها :

ـ لماذا ؟

ـ لأنهما شابان وخروجهما معًا بهذه الكثرة يعد أمرًا غير لائق .

قالت له وقد أدهشها سماع ذلك :

ـ هل نسيت أنهما يعيشان معًا تحت سقف واحد ؟ وأنهما بمثابة أخوين .

التفت إليها قائلاً :

ـ لكن الحقيقة .. أنهما ليسا كذلك .. وهى حقيقة يتعين علينا أن نعيها .

ـ (شاكر) .. هل رأيت شيئًا أو سمعت شيئًا أزعجك فى هذا الشأن ؟

ـ كلا .. لكن الاحتياط واجب .. لقد آن لنا أن ننتبه لخطورة هذا الارتباط الوثيق بين ابننا وهذه الفتاة .

ـ إننى لا أدرى وجه الخطورة فى ذلك .. لقد ربينا الاثنين أفضل تربية .. ولا أظن أن هناك ما نخشاه بشأنهما .

قال (شاكر) بنبرة حاسمة :

ـ قلت لك الاحتياط واجب .. ويتعين علينا أن نحمى ابننا من اندفاع الشباب أمام تيار العاطفة .

حاولى أن تلفتى نظرهما بطريقة ما إلى ضرورة الإقلال من خروجهما وتواجدهما معًا باستمرار .

آثرت الزوجة أن تنهى المناقشة عند هذا الحد .. فهى تعرف زوجها جيدًا وتعرف مغزى هذه النبرة التى تعنى إغلاق باب المناقشة .

لكنها لم تستطع أن تستوعب تمامًا هذا التحول الغريب فى أفكار زوجها نحو الشاب والفتاة .

★ ★ ★

ظلت (ليلى) تذرع حجرتها جيئة وذهابًا .. وهى تتطلع من النافذة إلى حديقة الفيلا فى انتظار عودة (هانى) .

كان قد تأخر عن الموعد الذى حدَده لها لحضوره إلى الفيلا على غير المعتاد .. مما أثار قلقها بشأنه .

أحست وقد احتوتها مشاعر الترقب والقلق على هذا النحو ، بمقدار ما تكنه له من عاطفة قوية .

فقد أصبح (هانى) يمثل بالنسبة لها قيمة كبيرة فى حياتها .

بل صارت حياتها مرتبطة به ارتباطًا وثيقًا .

فمشاعرها تفتحت على حبها له .. وغدًا يعنى بالنسبة لها كل شىء برغم أنها كثيرًا ما حاولت التظاهر بخلاف ذلك .

وهى تعرف أنه هو الآخر يحمل لها نفس القدر من الحب ، لكنها كثيرًا ما أحست بالقلق تجاه المستقبل .. وكثيرًا ما تساءلت عن مصير هذا الحب .

إنها لا تتصوَر لنفسها أى مستقبل بدونه .

بل لا تتصوَر الحياة نفسها بدونه .

وما لبثت أن رأته وهو يعبر بسيارته من بوابة الفيلا .. فأسرعت تغادر حجرتها وهى تهبط فى درجات السلم لتستقبله فى أثناء مغادرته للسيارة .

وما إن رآها حتى ابتسم لها قائلاً :

ـ (ليلى) !

سألته بعتاب قائلة :

ـ لماذا تأخرت ؟

ـ كانت السهرة لطيفة ، وأصر (طارق) على أن أبقى معهم وقتًا أطول .

قالت له وهى لا تستطيع أن تتحكم فى غيرتها :

ـ (طارق) أم أخته ؟

ابتسم قائلاً وهو يمسك بمرفقيها :

ـ هل تغارين ؟

هزَت كتفها قائلة :

ـ أنا ؟ وما الذى يدعونى إلى الغيرة ؟

أمسك بيديها قائلاً :

ـ حبك لى .

ـ أنت مغرور وواهم .

قال لها دون أن تفارق الابتسامة وجهه :

ـ وأنت تكابرين .. لأنك اعترفت لى بهذا الحب مرات عديدة من قبل .

ولم يعد يمكنك إنكار هذه الحقيقة .

ـ وهذا ما جعلك تصاب بالغرور .

ـ أظن أن من حقى أن أكون مغرورًا مادمت استطعت أن أجعل فتاة جميلة مثلك تغرم بى .

قالت له فى دلال :

ـ يا لك من خبيث !

ـ يا له من اتهام ظالم !

ـ (هانى) .. أنت تعرف أننى أحبك وأقلق عليك .. فلا تحاول أن تقلقنى عليك مرة أخرى .

قال لها وهو يمرّر أصابعه بين خصلات شعرها :

ـ وأنت أيضًا تعرفين أننى مفتون بك .. ولا أحب أن أتسبب لك فى أى قلق .

قالت له وقد استسلمت لمداعبة أصابعه لشعرها المنساب فوق كتفيها :

ـ ولهذا لم تأخذنى معك إلى هذا الحفل الذى ذهبت إليه .

ـ إنك تعرفين أنه كان حفلاً قاصرًا على (طارق) وبعض الأصدقاء من الشباب .

ـ هل تريد أن تقنعنى بأنه لم يكن من بين هؤلاء الأصدقاء عدد من الصديقات ؟ أعنى من الفتيات ؟

ـ أقسم لك إن جمعنا لم يكن يضم أية فتيات .

ـ حتى ولا (دينا) أخت (طارق) .

ـ حتى ولا (دينا) .. فقد تعمدنا أن يكون الحفل قاصرًا علينا كشباب فقط ؛ حتى نحظى بقدر أكبر من الحرية .

ـ ترى أية تصرفات حمقاء تلك التى شاركتهم فيها ؟

ـ كفاك تحقيقًا معى وهيا بنا لندخل إلى المنزل .. إننى أتساءل ماذا ستفعلين معى عندما تصبحين زوجتى ؟

أحست بسعادة تغمرها لدى سماعها لهذه الكلمة .. ونظرت إليه وهى تريح وجهها على راحته قائلة :

ـ زوجتك !

نظر إليها وقد أحس بعاطفة طاغية تجذبه نحوها . وهمس لها قائلاً :

ـ وهل تظنين أننى سأسمح لأحد أن يأخذك منى ؟

وهمست له بدورها قائلة فى عاطفة جارفة :

ـ وأنا لا أستطيع أن أكون لأحد سواك .

كادت ترتمى بين ذراعيه ، لكنها تنبهت إلى نفسها .. وهتفت :

ـ لا يا (هانى) .

سألها قائلاً :

ـ لماذا ؟

قالت له وقد أحست بالخجل من نفسها :

ـ لأن هذا لا يصح .

اقترب (هانى) منها قائلاً :

ـ لكنى أحبك .

ـ وأنا أيضًا أحبك .. لكن علينا ألا ندع عاطفتنا تجرفنا على هذا النحو .

أمسك بكتفيها قائلاً فى وجد :

ـ لم أعد قادرًا على الاستغناء عنك .. حتى وأنا فى ذلك الحفل وبين الأصدقاء كنت أفكر فيك .. (ليلى) يجب أن نتزوج .

استدارت لتواجهه وهى تمسك بيديه قائلة :

ـ (هانى) .. أنا .....

وفى تلك اللحظة ظهر (شاكر) الذى جاء من خلف ابنه ، وقد ارتسمت على وجهه ملامح الغضب والانفعال .. وهو يهتف قائلاً :

ـ ما هذا ؟ ما الذى يحدث هنا ؟

★ ★ ★



٦ - حب محرّم ..

قال (هانى) لأبيه محتجًا :

- إننى لا أدرى ما الذى فعلناه أنا و(ليلى) لتعاملنا هكذا ؟

نظر إليه (شاكر) وعلى وجهه أمارات التجهم قائلاً :

- ألا تدرى حقًا ما الذى فعلتماه ؟ ألا يكفى ذلك المشهد العاطفى الذى رأيتكما عليه فى حديقة الفيلا ؟

- أى مشهد عاطفى ؟ لقد كنت ممسكًا بيدها .. وأظن أن هذه ليست هى المرة الأولى التى ترانا فيها هكذا .

قال له (شاكر) محتدًا :

- هل تحاول أن تخدع أباك ؟ إن ما رأيته فى أعينكما كان أبعد ما يكون عن مجرد تصرف عفوى أو صلة بريئة !

أدار (هانى) ظهره لأبيه قائلاً :

- ليس بينى وبين (ليلى) ما يشين .. وعلى أية حال لقد كنت أنوى أن أخبرك بالأمر .

عقد (شاكر) ذراعيه خلف ظهره وهو يواجهه قائلاً :

- تخبرنى .. تخبرنى بماذا ؟

قال له (هانى) بصوت خفيض وهو مطرق الرأس :

- إننى أحب (ليلى) .. وأرغب فى الزواج منها .

نظر إليه (شاكر) وقد اتسعت حدقتاه قائلاً بانفعال :

- ماذا ؟

- إننى أريد الزواج من (ليلى) .. أعرف أننى مازلت طالبًا .. ولكن يمكن على الأقل أن نعلن خطبتنا هذا العام وننتظر حتى أنتهى من الدراسة .

- ما هذا التخريف الذى تقوله ؟

- إذا رأيت أن الزواج غير مناسب الآن .. يمكننا أن نؤجل الأمر برمته إلى ما بعد انتهائى من الدراسة .

لقد أردت فقط أن أوضح لك أن ما بينى وبين (ليلى) عاطفة شريفة وأننا .....

قاطعه (شاكر) قائلاً بحدة :

- لا بد أنك لست فى وعيك .

- لماذا ؟

- لأنك لا تعرف أنت ابن من ؟ وهى ابنة من ؟

- إنها ابنة الرجل الذى ضحى بحياته من أجلك .. كما أننى تربيت معها فى هذا المنزل وأنا أراك تعاملها كابنة لك .

- نعم ربيتها كابنة لى .. ولم أكن أفرق فى المعاملة بينكما وفاءً لهذا الرجل الذى ضحى بحياته من أجلى كما تقول .

لكن هذا أقصى ما يمكننى أن أقدِّمه لها .. ولا يمكن أن يطالبنى أحد بأن أقدّم لها ما هو أكثر من ذلك .

- نحن لا نطلب المستحيل .

صاح (شاكر) قائلاً :

- بل هو المستحيل بعينه !

- لماذا ؟ لأنها ابنة الرجل الذى كان يعمل سائقًا لك ؟ إن هذا لا يعيبها فى شىء .. خاصة وأن الناس لم تعد تعرف شيئًا عن أبيها أكثر من أنه رجل شريف وشجاع .

إنهم يعرفون الآن أن هذه الفتاة صارت ابنة لك أنت .

صاح (شاكر) قائلاً :

- ماذا دهاك يا (هانى) ؟ إننى لم أعتد أن أراك تتحدث بهذا الأسلوب العاطفى .

هل نسيت ما تحدثنا عنه من قبل بشأن مستقبلك ؟

هل نسيت الوظيفة التى تنتظرك بعد التخرج ؟

إنك ستكون دبلوماسيًا .. وهذه الوظيفة تحتاج إلى مواصفات معينة .. وتحريات دقيقة .

كما تحتاج إلى مكانة اجتماعية معينة لا بد أن تتوافر فيمن يشغلها .

ترى هل تستطيع أن تنال وظيفة كهذه وأنت متزوج من فتاة .. أمها كانت تعمل ممرضة وأبوها كان سائقًا ؟

وحتى لو تجاهلنا الوظيفة .. ألن تنجب من هذه الفتاة يومًا ما ؟

ألم تفكر فيما ستقوله لأبنائك عمن يكون جدهم وجدتهم ؟

والفارق الشاسع بين العائلة التى ينتمى إليها أبوهم وتلك التى تنتمى إليها أمهم ؟

- لم يعد أحد يفكر فى مثل هذه الأمور الآن .. فقد ذابت هذه الفوارق المصنوعة بين العائلات .

صاح (شاكر) وهو يضرب بيده على حافة مكتبه قائلا :

- بالنسبة لى لم تنته .. ولن تنتهى أبدًا .

وقام بفتح أحد أدراج مكتبه ليخرج منه ألبومًا ، قائلا وهو يقدمه له :

- انظر إلى هؤلاء .. إنهم جدودك .. كل فرد منهم كانت له مكانته الاجتماعية المرموقة .. إننا ننتمى إلى عائلة عريقة .. ولن أسمح لك أن تقلل من عراقتها .

- أبى .. إننى ......

قاطعه أبوه قائلاً :

- إنك لا تعرف أين مصلحتك .. لقد سمحت لنفسك أن تنجرف وراء عاطفة حمقاء .. ونسيت كل ما اتفقنا عليه من قبل .

واستطرد قائلاً وقد هدأت حدة انفعاله :

- إننى أعترف بمسئوليتى عن ذلك .. فلم أقدر خطورة التهاون بشأن هذا التقارب الوثيق بينك وبين الفتاة .

- لكنى أحبها .

- هراء ! لقد اعتدت وجودها معك فقط .. وهذا ما جعلك تتصور أنك تحبها .

لكن لو ابتعد كل منكما عن الآخر لفترة من الوقت ، فسوف تجد أن هذا الحب لم يكن سوى وهم .. وأنه يسهل التخلص منه .

- هل تعنى أنك ستبعدها عن المنزل ؟

- سيكون هذا هو الأفضل للجميع .

- كلا يا أبى .. إننى لن أوافق على ذلك .

قال (شاكر) بغضب :

- موافقتك لا تهمني فى شىء .

لكنه استطرد قائلا وهو يحاول أن يسيطر على غضبه :

- إننى لن أتخلى عنها كما تظن .. فما زال لأبيها دين فى عنقى .. كما أننى مازلت أعدها بمثابة ابنة لى .. ولكن لا بد من تصحيح الأمور .

- أبى !

قال له أبوه بحزم :

- لا تناقشنى فى هذا الأمر مرة ثانية .. ومن الأفضل لك أن تهتم من الآن بدروسك فقط .

استسلم (هانى) لإرادة أبيه وانصرف من الحجرة .

بينما قالت له زوجته التى حضرت إلى الحجرة لحظة انصراف ابنها :

- ماذا تنوى أن تفعل ؟

- يتعين علينا أن نبعد هذه الفتاة عن المنزل .

قالت له زوجته معترضة :

- (شاكر) .. ماذا تقول ؟

نظر إليها (شاكر) بغضب قائلاً :

- ألا ترين ما الذى وصلت إليه الأمور ؟

- لكن هذه الفتاة أصبحت ابنة لنا .. وأنا لا أستطيع أن أتحمل فكرة ابتعادها عنا .

صاح (شاكر) قائلاً :

- كان يتعين عليك أن تعرفى منذ البداية أنها ليست ابنتنا .

وأن تضعى الحدود الفاصلة بين فتاة ربيناها فى منزلنا وفاء لدين فى أعناقنا .. وبين الابنة الحقيقية .

ربما لو كنت قد أدركت ذلك منذ البداية ، لما تطورت الأمور إلى ما صارت إليه الآن .

قالت زوجته محتجة :

- كفاك ادعاء وإلقاء المسئولية على وحدى .. فأنت أيضًا أحببت هذه الطفلة .. كما أحببتها تمامًا .. ولم تضع شيئًا من هذه الحدود الفاصلة التى تتحدث عنها فى علاقتك بها ومشاعرك نحوها .

صمت (شاكر) برهة قائلاً بلهجة أقل انفعالاً :

- أعترف أننى أيضًا أحببت هذه الطفلة كابنتى تمامًا .. وأننى قد تعودت وجودها فى المنزل .

قالت له زوجته :

- إذن .. لماذا تعارض فى ...... ؟

قاطعها قائلاً وقد عادت إليه حدته :

- لأننى فيما يتعلق بمستقبل ابنى .. ابنى الحقيقى .. ينبغى أن أنحى العواطف جانبًا .

* * *



٧ـ لا تتركنى ..

استدعاها (شاكر) إلى حجرته ليسألها قائلاً :

ـ كيف أحوالك يا بنيتى ؟

قالت له الفتاة وهى مطرقة الرأس :

ـ أنا بخير يا بابا .

أشار (شاكر) إلى أحد المقاعد قائلاً :

ـ لماذا لا تجلسين ؟

جلست الفتاة وقد اعتراها إحساس بالقلق .

ثم ما لبثت أن بادرته قائلة :

ـ هل أنت غاضب منى يا أبى ؟

ـ ولماذا أغضب منك ؟

ـ لأنك لم تتحدث إلى بكلمة واحدة منذ يومين .

قال لها بكلمات مقتضبة :

ـ كنت مشغولاً للغاية فى الفترة الماضية .

انتظرت الفتاة وهى ترقبه فى انتظار أن يخبرها عن سبب استدعائه لها .

لكنه بدا متردداً لبرهة من الوقت .. ثم ما لبث أن سألها قائلاً :

ـ هل تحبين الجدة (أمينة) ؟

قالت له (ليلى) على الفور :

ـ بالطبع .

ـ إذن ما رأيك لو سافرت إليها لتقيمى معها بالإسكندرية ؟

قالت له بدهشة :

ـ بمفردى ؟ أعنى ألن نذهب إليها جميعاً ؟

حاول أن يرسم ابتسامة غير حقيقية على وجهه وهو يقول :

ـ وما المانع ؟ هل هذه هى المرة الأولى التى تذهبين إليها بمفردك ؟

ـ هل هى بخير ؟

ـ نعم .. إنها بخير فلا تقلقى هكذا .. هل لا بد أن تكون قد أصيبت بمكروه لتذهبى إليها ؟ ألا تحبين أن تريها ؟

قالت له وقد أحست بأن هناك شيئاً غريباً فى حديثه إليها :

ـ إننى أحب أن أراها دائمًا .

ـ أنا متأكد من ذلك .. فأنا أعرف مقدار ما تكنه كل منكما للآخرى من حب .. لذا سأجعلك تسافرين إليها وتقيمين معها .

قالت فى قلق :

ـ وكم سألبث هناك ؟

قال لها وقد بدت فى صوته نبرة حازمة :

ـ إنك ستقيمين معها إقامة دائمة .

نظرت إليه بدهشة قائلة :

ـ إقامة دائمة ؟ هل تعنى أننى سأبقى فى (الإسكندرية) ؟

قال لها مؤكدًا على كلامه وهو يدير وجهه بعيدًا عنها :

ـ نعم .

قالت له الفتاة فى حيرة :

ـ ولكن .....

قاطعها قائلًا :

ـ ولكن ماذا ؟ ألا تريدين أن تكونى بجوار والدتى ؟

لا أقصد هذا .. ولكنى لا أحب أن أبتعد عنكم .. ماما (فوزية) .. وحضرتك .

ـ لن تجدى فارقًا بين منزلى هنا ومنزل العائلة هناك .

فكما توليناا أمر رعايتك وتربيتك هنا .. سيتولى أخى (صلاح) أمرك هناك .

ثم إنك لن تبعدى عنا كثيرًا .. فالمسافة ليست كبيرة بين (القاهرة) و (الإسكندرية) .

وسوف نزورك بالطبع .. ونطمئن عليك دائمًا .

ـ ولكن الدراسة .. ألن أدخل الجامعة هنا ؟

ـ ليست هناك ضرورة لذلك .. تكفيك شهادة الثانوية العامة ، فلست بحاجة للجامعة أو الوظيفة .

ولا داعى لأن ترهقى نفسك بالمذاكرة والمحاضرات ، وكل تلك الأشياء ؛ لأننى سأضمن لك مستقبلًا مضمونًا فى شتى الأحوال .

قالت له وفى عينيها نظرة تساؤل :

ـ هل ارتكبت خطأ ما ؟

ـ من قال ذلك ؟

ـ إذن لماذا تحاول أن تبعدنى عنكم ؟

ـ ما هذه الأفكار الغريبة ؟ إنك لن تسافرى إلى دولة أخرى .

وهؤلاء الذين ستعيشين معهم ليسوا أغرابًا عنك .

إنه أخى ووالدتى .. أى أنك ستكونين بيننا وفى رعايتنا .

وبالنسبة لمصاريفك .. فإننى سأظل متكفلا بها .

أحست بأنه مصمم على سفرها .. وأنه قد اتخذ قراره بالفعل .. كما أدركت أنه لم يستدعها لمشاورتها فى الأمر .. بل لإبلاغها بقراره .. وكانت تعرف أنه ليس من حقها أن تعترض على هذا القرار أو ترفضه ، فهى تعرف منذ البداية أنها قد تربت فى هذا المنزل بعد أن فقدت أبويها ، ولم يعد يوجد عائل لها سوى (شاكر) وزوجته .

وأنه لولا كرم هذا الرجل ورعايته لها ، لكان مصيرها هو الشارع أو ملاجئ الأيتام .

وهى لا تستطيع أن تنكر فضله عليها .. كما لا تستطيع أن تنكر أنه وزوجته عاملاها كما لو كانت ابنة لهما ، وأنهما أغدقا عليها من العطف والرعاية بالقدر الذى جعلها تنسى أنهما ليسا أبويها الحقيقيين .

فتعاملت معهما كما لو كانا أبويها بالفعل .. وأعطت لنفسها حقوق الابنة .. وأصبحت تنظر إلى هذا المنزل كما لو كان منزلها .

أما الآن فهى قد تنبهت إلى حقيقة وضعها .. وأنه ليس من حقها أن تعترض أو ترفض ما يفرضه عليها أصحاب هذا المنزل .. لأن هذا ليس من حقها .. ولأنها لو فعلت ذلك ستكون ناكرة للجميل .

قالت له بانكسار :

ـ ألا يمكننى أن أكمل دراستى فى جامعة (الإسكندرية) ؟

صاح (شاكر) معترضًا :

ـ نعم !

ثم تنبه إلى أنه قد بالغ فى انفعاله .. فقال لها بنبرة أكثر هدوءًا :

ـ بصراحة يا (ليلى) .. إننى أريد أن تتفرغى لرعاية والدتى .. فأنا قلق بشأنها .. لقد كبرت فى السن وهى مريضة كما تعرفين .

و (صلاح) له أعماله ومصالحه التى تحول بينه وبين رعايتها على الوجه الأمثل .

كما أننى أشعر بالذنب نحوه لأنه حرم نفسه من الزواج حتى الآن لكى يرعاها .

وأنا لا أستطيع أن أثق بشخص آخر سواك .

لذا أريد منك أن تكونى متفرغة لها .. وأن تتولى شئونها بنفسك .. إننى أعتمد عليك فى ذلك .

هزت رأسها قائلة :

- لست بحاجة لأن توصينى بجدتى .

ابتسم قائلاً :

- نعم .. أعرف ذلك .

قالت له مترددة :

- ولكن ألا أستطيع أن آتى إلى هنا من آن لآخر .

- لا داعى لذلك .. فسوف نذهب نحن لزيارتك كما قلت لك .

أدركت (ليلى) أنه لا يرغب فى حضورها إلى المنزل .. وأن الأمر لا يتعلق فقط برغبته فى أن تشرف على رعاية الجدة .. بل هو يريد إبعادها عن المنزل تماماً .

استطرد (شاكر) قائلاً :

- يمكنك أن ترتبى حقائبك اليوم ، وأن تأخذى معك كل ما تحتاجين إليه ، وسوف أصحبك معى غداً إلى (الإسكندرية) .

نهضت قائلة وقد علت أمارات الحزن وجهها :

- حاضر .

راقبها وهى تنصرف قائلاً لنفسه :.

- أظن أننى سأفتقد وجودها معنا .. لكن لم يكن هناك بديل آخر ..فهذا هو الحل الأمثل .

لمحها (هانى) وهى تصعد فى درجات السلم متجهة إلى حجرتها ، فناداها .. لكنها لم تجبه .

وما لبث أن لحق بها قائلاً :

- (ليلى) .. ماذا بك ؟

نظرت إليه بعينين مغرورقتين بالعبرات قائلة :

- إننى سأسافر إلى (الإسكندرية) غداً يا (هانى) .. ولن أعود إلى هذا المنزل .

نظر إليها (هانى) بدهشة قائلاً :

- ماذا تقولين ؟ لماذا ؟

- لأن والدك يريد ذلك .

- والدى ؟ ما الذى قاله لك والدى ؟

- لقد طلب منى أن أقيم فى منزل العائلة بـ (الإسكندرية) .. وأن أعمل على رعاية جدتك .

قال لها بنبرة متخاذلة وهو يحاول ألا ينظر إليها :

- ربما كانت جدتى بحاجة لك بالفعل .. أنت تعرفين أن صحتها ليست على ما يرام .. وأنها تحبك .

ـ وأنا أيضًا أحبها كثيرًا .. ولا يمكن أن أتردد فى خدمتها ورعايتها .

لكنى لا أدرى لماذا لا يريد والدك أن تكون لى حرية الاختيار فى الحضور إلى هنا .. ولو لزيارة قصيرة .

قال لها بنفس النبرة المتخاذلة :

ـ ربما لأنه يريد منك أن تكونى قريبة دائمًا من جدتى .

ومن يدرى ؟ ربما شعر بدنو أجلها .. فيريد أن يطمئن لوجود شخص مثلك بجوارها فيما تبقى لها من عمر .

قالت له (ليلى) وهى تحدجه بنظرة فاحصة :

ـ لا يعلم الآجال غير الله (سبحانه وتعالى) .. إنك تبدو لو أن ابتعادى عنك لا يشغلك كثيرًا .

أطرق (هانى) برأسه قائلاً :

ـ (ليلى) .. إن أبى مستاء من الصلة التى تربط بيننا .. لقد صارحته بحبى لك ورغبتى فى الزواج منك .. لكنه رفض .. بل ثار وغضب وأصر على أن ينهى هذا الحب بأى ثمن !

قالت له بدهشة :

ـ ولكن .. لماذا ؟ إننى أعتبر نفسى ابنة له .. وكنت أظن أنه سيرحب بزواجنا .

ـ إن أبى لا يعترف بلغة العواطف .. فهو يحتفظ لنفسه بمقاييس أخرى .. مقاييس تتعلق بالثروة .. وببعض التقاليد الاجتماعية البالية .

ـ ولهذا أراد أن يبعدنى عن المنزل .. لقد شعرت بأن فى الأمر شيئًا ما منذ البداية .

ـ لم أكن أظن أن رد فعله إزاء حبنا سيكون عنيفًا على هذا النحو .

نظرت إليه (ليلى) وفى عينيها تساؤل قائلة :

ـ وماذا عنك ؟

قال لها متلعثمًا :

ـ إننى .. إننى .. إننى لن أرضخ لموقفه الغريب هذا بالطبع .

واقترب منها وهو يستطرد قائلاً :

ـ إنك تعرفين مقدار حبى لك .. وأننى لا أستطيع أن أتخلى عنك .. لكن يتعين علينا أن نتعامل مع هذا الأمر بهدوء ، وبدون أن نظهر له أننا نتحداه .. أو نخالف إرادته .

فأنت تعرفين عناد أبي وصلابته .

- لكنى لا أعرف شيئا عن قوة إرادتك فى سبيل الدفاع عن حبنا .

إذا كنت تحبنى حقًا .. وترغب فى الزواج منى .. فلا بد أن تصر على ذلك .

وأن تتمسك بحقنا فى هذا الحب ورغبتنا فى هذا الزواج .

- هل نسيت أننى مازلت طالبًا ؟ وأننى لا أملك من أمر نفسى شيئًا .. ثم إنه والدى .. وأنا لا أرغب فى تحديه أو أن يتحول الأمر بيننا إلى نوع من المواجهة والصراع .

إننى سأحاول إقناعه بزواجنا تدريجيًا .

- وإذا لم يقتنع ؟

- أنا واثق من أننى سأتمكن من إقناعه .. خاصة وأننى متأكد من أنه يحبك .. وأن الأمر ليس سوى مجرد انفعال وقتى .

قالت له بتهكم :

- يحبنى .. من الواضح أنه يحبنى .. ولكن ليس إلى حد أن يزوجنى من ابنه .. فهو لم ينس أننى ابنة سائقه .

- أؤكد لك أنه سيوافق على زواجنا فى النهاية .. ويمكننى أن أستعين بأمى للتأثير عليه .. فلا أريد أن تقلقى بهذا الشأن .

نظرت إليه قائلة :

- إن ما يؤلمنى حقًا هو أننى لن أستطيع أن أراك .

- من قال لك ذلك ؟ إن (الإسكندرية) ليست بعيدة عن (القاهرة) .. وسوف أنتهز أية فرصة للذهاب إليك .. وربما تجديننى لديك كل أسبوع .

اقتربت منه وهى تحاول أن تبحث عن الحقيقة فى عينيه قائلة :

- (هانى) .. هل تحبنى حقًا ؟

أمسك بكتفيها قائلاً :

- (ليلى) .. هل لديك شك فى ذلك ؟

أشاحت بوجهها بعيدًا وهى تقول :

- لا أدرى .. أحيانًا أشعر بأنك تحبنى .. وأحيانًا أخرى أشعر بأن هذا الحب ليس حقيقيًا .. أو على الأقل ليس قويًا بالقدر الذى يجعلك تتمسك به وتدافع عنه .

- دعك من هذه الأفكار .. فحبى لك أقوى مما تظنين .. لكنى قد شرحت لك الأمر .. إننا بحاجة لبعض الوقت والحكمة لكى نقنع الجميع بحبنا .

- (هانى) .. إننى لم أعد أستطيع أن أستغنى عنك .

- وأنا أيضًا يا (ليلى) .

* * *



٨ - فتاة حزينة ..

راقبها (هانى) وهى تستقل السيارة فى صحبة أبيه ، وقد ألقت نظرة سريعة خلفها لتنظر إليه بعينين مغرورقتين بالعبرات .. وقد بدت وكأنها تتوسل إليه ألا يتخلى عن حبهما .

وظلت عيناه تتطلعان إلى السيارة ، وهى تبتعد حتى اختفت عن ناظريه تمامًا .

وأخذ يتساءل وقد سيطر عليه إحساس ثقيل بالضيق والاكتئاب .. لم يكن ذلك بسبب رحيلها .. لكن لشعوره بعدم الرضا عن نفسه .

لقد أخبرها بالأمس أن حبه لها قوى .. بل أقوى مما تظن .

كما أكد لها أنه متمسك بها حتى النهاية .. ومهما كانت العقبات .

لكنه لم يكن ليستطيع أن يؤكد لنفسه ذلك .. فهو يعرف أنه يكذب .. وأن حبه ليس قويًا بالقدر الذى

حاول أن يصوره لها .. ولا بالقدر الذى تصوره هو .

فلكى يكون حبه لها قويًا .. لا بد أن يكون هو نفسه قويًا .

لكنه يفتعل هذه القوة .. وهذا ما لم يكن يستطيع أن يواجه نفسه به من قبل .

لكن لا بد أن يعترف به الآن .. بعد أن أثبتت له التجربة ذلك .. فهو ضعيف أمام إرادة أبيه .. وضعيف أمام طموحه وأمام المستقبل المرموق الذى رسمه له أبوه .. والذى يتعارض مع وجود (ليلى) فى حياته .

إنه يعرف جيدًا أن والده قد أبعدها عن المنزل بسببه .. وأنه لن يسمح له بأن يتزوجها .

وهو نفسه أصبح يتساءل عما إذا كان حبه لـ (ليلى) وارتباطه بها ، يمكن أن يساوى الأثر الذى يمكن أن يحدثه هذا الزواج فى مستقبله ؟

لو كان حبه لها قويًا حقًا .. لما تركها ترحل .. ولما استسلم لإرادة أبيه ، ولخطته فى إبعادها عنه .

كان يتعين عليه أن يدافع عنها ، وأن يصر على تمسكه بالارتباط بها .

لكنه رضخ سريعًا لما حدث .. وحاول أن يقنعها بمبررات هو نفسه غير مقتنع بها .. وأن يمنيها بوعود لا يعرف إذا ما كان يمكنه الوفاء بها أم لا .

لكنه أراد أن يدافع عن نفسه .. وأن يدفع عنه تلك الأحاسيس المزعجة قائلا :

- كلا .. إننى أقسو على نفسى بأكثر مما يجب .. لا بد أن هذا بسبب ذلك الأثر السيئ الذى تركه رحيل (ليلى) عن المنزل .. إنها تحبنى وأنا أيضًا أحبها .. ولن أتخلى عنها .. نعم لن أتخلى عنها .

فهى جزء منى .. من حياتى .. من نفسى .. ولا أستطيع أن أنحيها عن حياتى بهذه السهولة .

★ ★ ★

مرّ شهران على وجودها فى (الإسكندرية) .. كانت تحاول خلالها أن تتغلب على اشتياقها لرؤية (هانى) بالتفانى فى الاهتمام بالجدة ، والسهر على رعايتها .

وكانت الزيارات الخاطفة التى تقوم بها من قبل إلى (الإسكندرية) ، قد أوجدت نوعًا من المودة والعاطفة المتبادلة بينها وبين هذه السيدة العجوز ، التى تشع الطيبة من وجهها .

لكن الشهرين الأخيرين اللذين قضتهما معها ضاعفا من هذه المودة .. وعمقا مشاعر الألفة والصداقة بينهما .

وإن كان ذلك لم يبدد شوقها وافتقادها للشخص الذى أحبته ولهفتها على رؤيته .

نظرت إليها الجدة وقد لاحظت شرودها قائلة :

ـ فيم تفكرين يا (ليلى) ؟

انتبهت (ليلى) من شرودها قائلة :

ـ هه ؟ لا .. لا شىء .

ابتسمت الجدة فى طيبة قائلة :

ـ كيف ؟ وأنا أراك تحدقين فى هذا الجدار منذ عشر دقائق بعينين شاردتين دون أن تنطقى بكلمة واحدة .

لا بد أن هناك شيئًا يشغل تفكيرك .

هزت (ليلى) كتفيها قائلة :

ـ لم أكن أفكر فى شىء محدد .. مجرد أننى شردت قليلا .

قالت لها الجدة وهى تمسح بيدها على شعرها :

ـ على أية حال .. لن أحاول التطفل على أفكارك .

سألتها (ليلى) قائلة :

ـ قولى لى يا جدتى .. هل أحببت جدى قبل الزواج ؟

ابتسمت الجدة قائلة :

ـ فى أيامنا لم يكن الحب مباحًا ، ويسهل التعبير عنه كما هو الآن .. لكنه كان أقوى وأعمق مما هو عليه الآن .

ومع ذلك فقد وجدت فى نفسى الجرأة للمجاهرة بهذا الحب برغم تعارضه مع التقاليد وقتها .

قالت (ليلى) وهى تتابع حديثها بشغف :

ـ وهو .. أعنى جدى .. هل كان يحبك ؟

حدقت الجدة فى صورة زوجها المعلقة على الجدار ، وقد بدا أنها تستعيد ذكريات سنوات بعيدة مضت .. وقالت :

ـ كان حبه لى يفوق الوصف .

ـ إذن فقد كان زواجكما مبنيًا على حب حقيقى .. وليس مجرد زواج تقليدى .

ضحكت الجدة قائلة :

ـ لقد تلقيت علقة ساخنة بسبب هذا الزواج .. أما هو فقد كادت أسرته أن تتبرأ منه بسبب هذه الزيجة أيضًا .

قالت (ليلى) وقد شدها الحديث :

ـ إلى هذا الحدّ ؟

ـ نعم .. ولكنه أصر على أن نتزوج مهما كانت العواقب .. وهذا ما جعلنى أزداد حبًا له .

ـ هل كان الاعتراض على الزواج بسبب وجود فارق اجتماعى بين الأسرتين ؟

ـ مطلقًا .. فكل منا كان ينتمى لأسرة ثرية ومرموقة .. ولكن كان يوجد عداء بين الأسرتين منذ فترة طويلة .. وهذا ما جعلهما يعترضان على زواجنا .

ـ وهل استمر هذا العداء بعد زواجكما ؟

ـ كلاً .. لقد تلاشى مع مرور الزمن .. وكان زواجنا أحد أسباب انقضاء هذا العداء .

نظرت (ليلى) إلى ساعتها وهى تنتفض قائلة :

ـ الساعة الآن التاسعة وقد نسيت أن أعطيك الدواء .

قالت لها الجدة متبرمة :

ـ هذا هو الشىء الوحيد الذى كنت أتمنى ألا تتذكريه .

ضحكت (ليلى) وهى تقدم لها الدواء قائلة :

ـ لقد كدت أنسى بسبب حديثك الشيق .

سألتها الجدة قائلة :

ـ ألا تشعرين بأننى قد أثقلت عليك بهذا الحديث ؟

ابتسمت (ليلى) قائلة :

ـ بالعكس .. لقد أنسانى همومى الشخصية .

قالت لها الجدة وهى تضع يدها على رأسها بحنان :

ـ إنك مازلت صغيرة يا حبيبتى على حمل الهموم .

وفى تلك اللحظة سمعا طرقات على الباب .. ثم دخل (صلاح) إلى الحجرة قائلاً :

ـ مساء الخير .

واقترب من أمه ليجلس بجوارها قائلاً :

ـ كيف حالك يا أمى ؟

ابتسمت الأم فى رضا قائلة :

ـ الحمد لله .. إننى بخير .. وقد تحسنت صحتى كثيرًا منذ أن حضرت (ليلى) إلى المنزل .

نظر (صلاح) إلى (ليلى) بامتنان قائلاً :

ـ هذا ما ألحظه بالفعل .

وعاد ليقول لأمه :

ـ ولكن .. لماذا تأخرت عن موعد نومك ؟

ـ لقد انشغلت بالحديث مع صغيرتى (ليلى) على نحو أنسانى النوم .

قالت (ليلى) :

ـ فى الحقيقة أنا التى أردت أن أستزيد من حديثها .. حتى إننى لم أنتبه إلى أن موعد نومها قد حان .

سأل (صلاح) أمه :

ـ هل تناولت الدواء ؟

ـ نعم .. لقد قدمته لى (ليلى) .

ونظرت إلى (ليلى) قائلة :

ـ يمكنك أن تذهبى الآن يا بنيتى لتستريحى .. فقد أتعبتك معى اليوم .

ابتسمت لها (ليلى) قائلة :

ـ لا يمكن أن أتعب منك أبدًا يا جدتى .

واستأذنت للانصراف من الحجرة .

لكن (صلاح) استوقفها قائلاً :

ـ (ليلى) .. ألم يتصل أبوك هاتفيًا اليوم ؟

أجابته (ليلى) قائلة :

ـ نعم .

قال لها وهو يحدجها بنظرة فاحصة :

ـ ولا (هانى) ؟

هزّت رأسها بالنفى .. ثم غادرت الحجرة .

لاحظت الأم استغراق (صلاح) فى التفكير للحظات بعد انصراف (ليلى) .. فسألته قائلة :

ـ هل هناك شىء يا (صلاح) ؟

نظر إليها (صلاح) قائلاً :

ـ إن (شاكر) لم يتصل بالهاتف منذ أسبوع تقريبًا .

ـ وما الغريب فى ذلك ؟ أحيانًا تمر أسابيع دون أن يتصل .. على أية حال لماذا لا تتصل به أنت لتطمئن عليه ؟

قال لها (صلاح) بضيق :

ـ الأمر لا يتعلق باتصاله بنا أو اطمئناننا عليه .. فأنا واثق أنه بخير .

ولكن .....

سألته الأم وقد اعتراها القلق :

- ولكن ماذا يا بنى ؟ لقد جعلتنى أقلق .

- إن هذه الفتاة تربت بينهم .. وتعدهم بمثابة أهلها .. وهى شديدة التعلق بهم .. وكان يتعين عليهم أن يبدوا اهتمامًا أكثر بها .

فلم يحاول أحد منهم أن يأتى لرؤيتها خلال الشهرين اللذين قضتهما هنا .

ولا بد أن هذا الأمر يؤلمها حتى ولو لم تصرح بذلك .

تنهَدت الجدة قائلة :

- معك حق يا بنى .. إن الفتاة تشرد أحيانًا .. وأرى فى عينيها مسحة من الحزن .. ولا بد أن هذا بسبب فراقها لهم واشتياقها لرؤيتهم .

وصمتت برهة .. قبل أن تستطرد قائلة :

- ولكن لماذا لا تصحبها معك إلى (القاهرة) لكى تلتقى بهم هناك ؟

صمت قليلاً .. ثم قال بنبرة حاسمة :

- نعم .. لا بد أن أفعل ذلك .. فليس من المقبول أن يتجاهلوها على هذا النحو .

إننى سعيد لوجودها معنا هنا .. خاصة وأننى أصبحت أكثر اطمئنانًا عليك فى ظل وجودها .

ولكنى لا أقبل أن يكون ذلك على حساب حرمانها من هؤلاء الذين اعتبرتهم أسرتها وأهلها .

★ ★ ★



٩ - لقاء على الشاطئ ..

تطلعت (ليلى) من نافذة حجرتها إلى البحر ، وقد عصف بها الشوق والحنين إلى حبيبها الغائب .

أحست بأنها تفتقده بشدة .. وأنها بحاجة لأن يشاركها أحد فى إحساسها هذا .

لكنها لم تكن قادرة على أن تعبر عن هذه المشاعر التى تضطرم فى نفسها ، أو تبوح بها لأحد .

لم يكن بمقدورها سوى أن تخفى لوعتها فى صدرها .. وأن تمنى نفسها برؤية الحبيب الغائب الذى اضطرت أن تذعن للابتعاد عنه .

واستعادت ما قالته لها الجدة عن زوجها الراحل .. وكيف دافع عن حبه .. وتصدّى لأسرته فى سبيل الاقتران بها .

وقارنت بين ذلك وبين موقف (هانى) المتخاذل نحوها .. واستجابته السريعة لقرار والده بإبعادها عن منزلهم فى (القاهرة) .

لكنها عادت تقول لنفسها وهى تلتمس له العذر :

- إن المقارنة ظالمة وغير عادلة .. فـ (هانى) ما زال طالبًا بينما الجد كان وقتها يملك زمام أموره .

كما إننى لا يمكن أن أشجع على وجود خلاف بين (هانى) ووالده .. مهما كانت الأسباب وأيًا كانت المشاعر .

فلا يمكننى أن أنكر فضل هذا الرجل علىّ ، ورعايته وتربيته لى هو وزوجته .. لا يمكن أن يكون ردّ الجميل فى النهاية هو أن أفسد العلاقة بينهما وبين ابنهما بسببى .

وحتى لو لم يكن ذا فضل علىّ .. فلا يمكننى أن أقبل أن أكون سببًا لإفساد علاقة بين أب وابنه .. فهذا أمر لا أستطيع أن أرضاه وأقبله .

واغرورقت عيناها بالعبرات برغمها وهى تقول لنفسها بأسى :

- ولكنى لا أستطيع أيضًا أن أتصوّر حياتى بدون (هانى) .

فهو الشخص الوحيد الذى أحببته وتفتح له قلبى .

ونظرت إلى السماء بقلب خاشع قائلة :

ـ ربَى .. ارأف بقلبى .. وساعدنى على أن أتقبل ما قدرته لى .. دون ألم وبنفس راضية .

وما لبثت أن سمعت طرقات على باب حجرتها .. فسارعت بمسح عينيها من آثار العبرات وهى تطلب من الطارق الدخول .

كان القادم هو (صلاح) الذى نظر إليها قائلاً :

ـ هل كنت تبكين ؟

قالت له سريعًا وهى ترسم على وجهها ابتسامة باهتة ومصطنعة :

ـ أبدًا .. من قال هذا ؟

حدجها (صلاح) بنظرة فاحصة قائلاً :

ـ عيناك تقولان هذا .

ـ يبدو أن عينىَ متعبتان قليلاً .

قال (صلاح) وهو يحاصرها بنظراته :

ـ إنك لست ماهرة فى الكذب .

واستطرد قائلاً دون أن يرفع عينيه عنها :

ـ (ليلى) .. هل يضايقك شىء ما لدينا هنا ؟

ـ أبدًا .

ـ هل أساء أحدنا إليك ؟ أعنى أنا أو والدتى .. سواء بقصد أو بدون قصد ؟

ـ مطلقًا يا عمى .. لماذا تقول ذلك ؟

ـ لأنك .. منذ أن جئت إلى هنا وأنا أرى فى عينيك نظرة حزينة .. كما أراك فى أحيان كثيرة تتظاهرين بالسعادة دون أن تحسيها .

ـ ولكنى سعيدة بالفعل لوجودى معكما .

ـ لا يا (ليلى) .. لقد قلت لك : إنك غير ماهرة فى الكذب .

إننى لم أتكلم معك كثيرًا منذ أن جئت إلى هنا .. لكن لى عينين أرى بهما جيدًا .

فى البداية ظننت أن انتقالك إلى مكان آخر جديد عليك غير المنزل الذى تربيت فيه .. وابتعادك عن أبويك اللذين تكفلا بتربيتك .. وعن (هانى) هو سبب هذه الحالة التى كنت تبدين عليها .. وأنه مع مرور الوقت ستتأقلمين مع المكان والأشخاص هنا .

لكن يبدو أن هذا لم يحدث ، وأنك ما زلت تتألمين .

لذا فإذا كنت تريدين أن تعودى إليهم فلا يوجد ما يحول بينك وبين ذلك .. ولا تحملى همًا بشأن والدتى .. فأنا أستطيع أن أتكفل برعايتها .

وبرغم أنها أصبحت شديدة التعلق بك إلا أنها ستتفهم الأمر .. و .....

قاطعته (ليلى) قائلة :

- كلا يا عمى .. إننى أريد أن أبقى هنا .

حدجها بنظرة فاحصة قائلاً :

- هل أنت واثقة بأن هذا هو ما تريدينه فعلاً ؟

- نعم .

نظر إليها لبرهة فى صمت وعيناه لا تصدقانها .

ثم ما لبث أن قال :

- حسن .. ولكن يمكننى على الأقل أن أصحبك فى زيارة قصيرة لهم .. غدًا أو بعد غد .. كما تشائين .. فلا بد أنهم هم أيضًا يرغبون فى رؤيتك .

لكنها قالت له بنبرة تحمل معنى الإصرار :

- كلا .. إننى لا أريد أن أغادر (الإسكندرية) .

قال لها باستغراب :

- ولكن .. ألا تريدين أن تقومى بزيارة قصيرة لهم على الأقل ؟

- إننى أفضل أن أبقى بجوار جدتى .

- إن يومًا أو يومين لن يؤثرا .....

قاطعته مرة أخرى قائلة :

- أرجوك يا عمى .. إننى لا أرغب فى هذه الزيارة .. ولا تحاول أن تسألنى عن السبب .

نظر إليها بأسى وهو يهز رأسه قائلاً :

- كما تشائين .

وصمت برهة قبل أن يستطرد قائلاً :

- ولكن إذا أردت فى أى يوم من الأيام أن تذهبى إليهم .. أو أحسست بأنك مشتاقة لرؤيتهم .. فلا تترددى فى أن تخبرينى بذلك دون أن تخشى شيئًا .

وضغط على كلماته وهو يعيد ما قاله لها :

- هل سمعت ؟ دون أن تخشى شيئًا .. أى شىء !

ثم فتح باب الغرفة ليغادرها قائلاً :

- تصبحين على خير .

قالت له بصوت حزين متهدج :

- تصبح على خير .

وما إن انصرف حتى أطلقت العنان لعبراتها مرة أخرى وهى تقول :

- لو تعلم مدى اشتياقى لرؤيتهم .. لو تعلم مدى قسوة ابتعادى عنهم !

ولكنى لا أستطيع أن أفعل إلا ما أمرنى به بابا (شاكر) .. لا أستطيع أن أخالف إرادة الرجل الذى ربانى وقام معى بدور الأب طوال ثمانية عشر عامًا من عمرى .

لا أستطيع حتى أن أعترض على ما اختاره لى .. لأننى أسيرة فضله .

أيضًا لا أستطيع أن أفرض نفسى عليهم ، ما داموا لا يريدون أن يرونى .

★ ★ ★

استقبل (صلاح) ابن أخيه فى منزله مرحبًا وهو يعاتبه قائلاً :

- يا لك من ولد عاق ! هل كان يتعين على أن ألح فى الهاتف على حضورك ، لكى تتعطف فى النهاية وتوافق على زيارتنا ؟

قال له (هانى) معتذرًا :

- سامحنى يا عمى .. لقد بدأت الدراسة .. وقد انشغلت بالمذاكرة والمحاضرات .

قال (صلاح) وهو يضع يده على كتفه فى أثناء مصاحبته إلى الداخل :

- يا لها من حجة واهية ! متى كانت الدراسة والمذاكرة عائقًا يمنعك من الحضور إلى (الإسكندرية) ، وزيارتنا ثلاثة أشهر كاملة ؟

أم أنك أصبحت تتشبه بأبيك .. وتنوى أن تكون مثله ؟

ابتسم (هانى) قائلاً :

- لا تقل هذا يا عمى .. فأنت تعرف أننى لا أستطيع الاستغناء عنك .

- هأنتذا قد استغنيت بالفعل .. ألم أوحشك ؟ ألم توحشك جدتك ؟ ألم توحشك (ليلى) ؟

اضطرب وجه (هانى) وهو يردد قائلاً :

- (ليلى) ؟

قال (صلاح) وهو يتأمل ملامح وجهه المضطربة :

- نعم .. (ليلى) .. هل نسيتها ؟ أم أن البعيد عن العين بعيد عن القلب ؟

على أية حال سيكون عتابى لك فيما بعد .. أما الآن فهيا لتلتقى بجدتك .. ولتفاجئ (ليلى) بحضورك .

- هل هى مع جدتى ؟

ـ كـلا .. إنها على الشـاطئ .. وسـوف أصحبك إليها .. لكن أظن أنه من الواجب عليك أولا أن تحيى جدتك ما دمت هنا فى المنزل .. أليس كذلك ؟

ـ بالطبع .. بالطبع .

ـ إذن هيا .. اذهب لتسلم على جدتك .. والحق بى لأصحبك معى لمقابلة (ليلى) .

وبعد أن التقى (هانى) بجدته، اصطحبه (صلاح) إلى المكان الذى توجد به (ليلى) على الشاطئ .. حيث كانت مسترخية أسفل المظلة ، وقد وضعت منظارًا شمسيًا فوق عينيها اللتين أغمضتهما ، وهى تمد قدميها أمامها .

قال له (صلاح) وهو يشير إليها :

ـ ها هى ذى (ليلى) .. هيا اذهب إليها .

ابتسم (هانى) وهو يتأملها قائلاً لعمه :

ـ ألا تأتى معى ؟

ابتسم (صلاح) قائلاً :

ـ لماذا ؟ هل تريد أن أعرفك بها ؟ أم أنك تخجل من التحدث إليها بمفردك ؟

قال له (هانى) وهو يشعر بالحرج كما لو كان سيلتقى بها بالفعل لأول مرة :

ـ كلا .. ولكن ......

قال له (صلاح) مقاطعًا ومداعبًا :

ـ لا أظن أنك تريد أن يكون معك (عذول) فى هذه اللحظة .

ولكزه فى جنبه بمرفقه قائلاً :

ـ هيا .. اذهب إليها ولا تضع الوقت .. ويمكنك أن تبقى معها كما تشاء .. بشرط ألا تتأخرا عن موعد الغداء .. فسوف أعد لك بنفسى اليوم وجبة من الأسماك لم تذق مثلها من قبل .

ابتسم (هانى) قائلاً فى امتنان :

ـ أشكرك يا عمى .

لكن (صلاح) استوقفه قبل أن يتحرك وهو يمسك بمرفقه قائلاً :

ـ انتظر .

وقال له بنبرة حانية :

ـ كن لطيفًا معها .

ثم استطرد قائلاً وهو يحذره :

ـ وإياك أن تخبرها بأننى أنا الذى اتصلت بك ، ودعوتك للحضور إلى (الإسكندرية) .

قل لها : إنك قد جئت من تلقاء نفسك لتراها ، لأنك تفتقدها .

نظر (هانى) إلى عمه وفى عينيه مزيج من التقدير والامتنان .. فهو يعرف أنه يمتلك قلبًا حنونًا .. لكن الاهتمام الذى أبداه نحوه ونحو (ليلى) هذه المرة ، كان له تأثير قوى على نفسه .

وربت عمه على كتفه مشجعًا .. ثم انصرف .

بينما بدا على (هانى) بعض التردد ، وهو يعود للنظر إلى (ليلى) .

ثم ما لبث أن تقدم نحوها ليقف أمامها قائلاً :

ـ صباح الخير يا (ليلى) .

لم تصدق (ليلى) أذنيها عندما سمعت صوته .

وما لبثت أن فتحت عينيها المغمضتين ببطء ، وهى تظن أنها ترى صورة لحلم أمامها .

وسرعان ما رفعت المنظار الأسود عن عينيها وهى تهتف قائلة :

ـ (هانى) ؟!

★ ★ ★

١٠ ـ لقاء عاصف ..

نظر إليها بعينين تتدفقان عاطفة قائلاً :

ـ لقد أوحشتنى .

قالت له معاتبة وهى تحاول أن تخفى شوقها وحنينها إليه :

ـ ولهذا لم تحاول أن ترانى ولو مرة واحدة طوال الأشهر الماضية .

ـ لكنى كنت أتصل بالهاتف دائمًا لأطمئن عليك .

ـ حقًا ؟ هل ترى أن فى هذا ما يكفى ؟

جلس إلى جوارها قائلاً :

ـ إنك لم تغيبى عن عقلى ووجدانى طوال الفترة الماضية .. لكن ظروفى حالت دون أن آتى لرؤيتك .

ـ أى ظروف يمكن أن تمنعك من رؤية الفتاة التى من المفترض أنك تحبها ؟

حتى هذا الاتصال الهاتفى الذى تتحدث عنه توقف تمامًا منذ ثلاثة أسابيع .

ولولا اتصال بابا (شاكر) واطمئنانى عليك من خلال عمك لظننت أنك قد أصابك مكروه .

هل نسيت ما قلته لى قبل أن أضطر لمغادرة منزلكم ؟

لقد قلت لى : إن المسافة قصيرة بين (القاهرة) و(الإسكندرية) ، وأنك ستأتى لرؤيتى باستمرار .. فكيف هان عليك أن تغيب عنى كل هذا الوقت الطويل ؟!

قال لها وقد بدا عاجزًا عن تقديم إجابة مقنعة :

ـ (ليلى) .. إننى .. أنا ..

أحست بحرجه فقالت له مقاطعة :

ـ لا تشغل نفسك بالبحث عن أعذار .. المهم أنك هنا الآن .

وأنك تجلس بجوارى .. يكفينى هذا .. لأنسى عذاب الأشهر الماضية .

تكفينى رؤيتك والاطمئنان عليك .. وعلى أنك مازلت تحبنى ، لكى تهون علىّ كل مشاعر الوحدة والحزن التى عشتها بعيدًا عنك .

نظر (هانى) فى عينيها قائلاً :

ـ أنا أيضًا عشت هذه المشاعر وتألمت كثيرًا لابتعادك عنى .

أخذت تتأمله بعينين تفيضان اشتياقًا وعاطفة .. وكأنها تريد أن تشبع عينيها منه ، وأن تعوض حرمانها من وجوده .

بينما أمسك بيدها ليقبلها قائلاً :

ـ لقد افتقدتك كثيرًا يا (ليلى) .

احتضنت أصابعها أصابعه وهى تسأله قائلة :

ـ أما زلت تحبنى يا (هانى) ؟

قال وهو يرنو إليها بعينيه العميقتين اللتين طالما أحبتهما :

ـ ولن أحب أحدًا سواك .

ألقت برأسها على كتفه قائلة :

ـ إننى خائفة يا (هانى) .

وضع يده على كتفها قائلاً :

ـ لا تخافى وأنا معك .

قالت وقد استكان رأسها على كتفه :

ـ لكنك لن تكون معى غدًا .

ـ ولكنى سأكون معك العمر كله .

ليت هذا يكون حقيقيًا .. وليس مجرد حلم .

ـ سيكون الحلم حقيقة .

ـ لكن الأحلام لا تتحقق دائمًا .

ـ لا تكونى متشائمة .

ـ أخشى أن يحدث ما يفرق بيننا .

نظر إليها قائلاً :

ـ (ليلى) .. أنا أحبك ولن أدع شيئًا يفرق بيننا .

ـ لكن والدك لا يوافق على هذا الحب .

ـ سأبذل كل جهدى لكى يوافق .. ولكن لماذا لا تنسين ذلك .. وننعم بتلك اللحظات الجميلة التى تجمع بيننا الآن ؟

ـ نعم .. لننس كل شىء .. ونعوض بهذه اللحظات آلام الفراق ولوعة الاشتياق .

★ ★ ★

ودعته بعينين حزينتين ترقرقت فيهما العبرات .. قائلة :

ـ هل سأراك قريبًا ؟

ابتسم لها وهو يقبل أناملها قائلاً :

ـ بالطبع يا حبيبتى .

ـ لقد قلت لى ذلك من قبل .. لكنك غبت عنى طويلاً .

قال وهو يمسح بيده على شعرها :

ـ لن أغيب عنك طويلاً هذه المرة .

واستطرد قائلاً وهو يرفع وجهها إليه بأنامله :

ـ (ليلى) .. لا تدعينى أر دموعك قبل رحيلى .. فهذا شىء يؤلمنى .

قالت له وهى تحاول ألا تدع العبرات تسقط من عينيها :

ـ حاضر يا حبيبى .. ولكن تذكر أنك وعدتنى .

ـ وسوف أفى بوعدى .

استدار لينصرف .. لكنها استوقفته قائلة :

ـ (هانى) .. اعتن بنفسك .

ابتسم لها قائلاً :

ـ وأنت أيضًا .

ولوح لها وهو ينصرف .

لكنه ما كاد أن يبتعد عنها بضع خطوات حتى نادته مرة أخرى قائلة :

ـ (هانى) !

توقف وهو ينظر إليها .. بينما اندفعت هى نحوه .. لتحتضنه بقوة قائلة :

- ستوحشنى كثيرًا .

طوقها بذراعيه قائلاً :

- وأنت أيضًا يا حبيبتى .

كان (صلاح) يستعد لاصطحاب ابن أخيه معه ، حينما رآهما وهما يودعان بعضهما على هذا النحو ، فتراجع قليلاً حتى لا يرياه .

وعندما تأهب (هانى) لمغادرة المنزل .. لحق به عمه قائلاً :

- انتظر يا (هانى) .. سأوصلك إلى المحطة .

قال له (هانى) وملامح التأثر مازالت بادية على وجهه :

- لا داعىَ لذلك .

لكن عمه قال له بإصرار وهو يمسك بذراعه :

- بل سأذهب معك .. لأنى أريد أن أتحدث إليك .

وفى محطة القطار وقف عمه يتحدث إليه قائلاً :

- قل لى صراحة .. هل تحب (ليلى) ؟

قال له (هانى) وقد فوجئ بهذا السؤال المباشر :

- نعم .

- وماذا تنوى أن تفعل بشأنها ؟

نظر إليه (هانى) قائلاً :

- ماذا تعنى بذلك ؟

- أنت تفهم ما أعنيه جيدًا .. ما الذى ستفعله إزاء حبك لها .. وإزاء موقف أبيك من هذا الحب ؟

- إننى أرغب فى الزواج منها .

- وما الذى يمنعك ؟

- عمى .. إننى مازلت أدرس .. ومستقبلى لم يتحدد بعد .

- ليس هذا مبررًا كافيًا .. فمستقبلك مضمون ومأمون .. أمامك وظيفة مرموقة تنتظرك بعد التخرج .. ولديك المال اللازم للقيام بأعباء الزواج من الرصيد الذى وضعه لك والدك فى البنك باسمك .. فما الذى تحتاج إليه أكثر من هذا ؟

إنك تستطيع أن تخطبها على الأقل .. ثم تؤجل بقية إجراءات الزواج لما بعد .

ولكن أبى معارض لهذا الزواج بشدة .. وأنا لا أريد أن أغضبه .

- ولكن هذه حياتك ومشاعرك .. فهل تنوى أن تجعله يتدخل فيهما ؟

- إننى أسعى لإقناعه .
- وهل نجحت مساعيك طوال الأشهر الماضية لكى تجعله يتقبل هذا الحب ويوافق على زواجك منها ؟
خفض (هانى) رأسه قائلا :
- فى الحقيقة إننى لم أحاول معه بعد .
قال (صلاح) بانفعال :
- ولن تحاول .. ليس لأنك ضعيف أمام إرادة أبيك قط .. ولكن لأنك أنت نفسك متردد .
- كلا يا عمى .. إننى أحب (ليلى) ومتمسك بها .
- عليك أن تثبت ذلك .. إن هذه الفتاة تحبك حبًا خرافيًا .. والفترة التى قضتها معنا هنا أكدت لى أنها جوهرة حقيقية .. فلا أريد أن تخسرها .. بسبب ترددك أو ضعفك أو طموحك الزائد .
وبينما هما يتحدثان معًا حضر (شاكر) إلى محطة القطار حيث لمحهما وهما واقفان على رصيف المحطة .. فتقدم نحوهما وعلى وجهه أمارات الغضب .. ونادى ابنه بانفعال :
- (هانى) !
فوجئ (هانى) برؤية أبيه .. فتسمر فى مكانه وقد اعتراه الاضطراب .

بينما تغلب (صلاح) على وقع المفاجأة وأراد الترحيب بأخيه قائلاً :
- أهلاً (شاكر) .
لكنه تجاهل اليد الممدودة لمصافحته وهو يحدق فى ابنه قائلاً :
- ما الذى أتى بك إلى هنا ؟
قال له (هانى) بصوت خفيض :
- جئت لزيارة عمى وجدتى .
قال له (شاكر) بغضب :
- ولماذا لم تخبرنى بذلك قبل حضورك إلى هنا ؟
- ما هذا يا (شاكر) ؟ وهل هو بحاجة إلى إذن لكى يأتى لزيارة عمه وجدته ؟
قال (شاكر) وقد علت نبرات صوته :
- عمه وجدته .. أم (ليلى) ؟
أطرق (هانى) برأسه إلى الأرض بينما قال (صلاح) لأخيه :
- وماذا فى ذلك ؟ لقد تربيا معًا ومن الطبيعى أن يفكر فى رؤيتها .
نظر (شاكر) إلى أخيه قائلاً فى غلظة :

- اسمع يا (صلاح) .. لا تحاول أن تتظاهر بالغباء أمامى .. فعندما أتيت بـ (ليلى) إلى هنا حاولت أن أوضح لك الأمر .....

قاطعه (صلاح) قائلاً :

- أى أمر ؟ إنك تسعى لحرمان قلبين متحابين من حبهما .. وقوفك أمام مشاعر ابنك .. وتحطيم قلب الفتاة التى ربيتها كابنتك .

قال له (شاكر) بضيق :

- ما هذا الكلام الذى تقوله ؟ قلبان متحابان ؟ وحرمانهما من حبهما ؟ إنك تتكلم كما لو كنت مراهقًا صغيرًا .. يجب أن تكون أكثر إحساسًا بالمسئولية تجاه ابن أخيك .. وأن تتكلم كرجل ناضج .

- الحب لا يعرف عمرًا .. ولا علاقة للمشاعر الجميلة بالنضج أو المراهقة .. وعلى أية حال إننى لا أرى فى زيارة (هانى) لنا ما يدعو للقلق .. أم أنك ستحرم عليه زيارتنا .. كما حرمت على (ليلى) زيارتكم ؟

- إننى سأفعل ما فيه مصلحة ابنى دون أن أعبأ بأى شىء آخر .

- إنك دائمًا لا تعبأ بمشاعر الآخرين .

تدخل (هانى) فى الحديث قائلاً على استحياء :

- أبى .. إننى أريد أن تفسح لى صدرك .. فأنا و(ليلى) .....

قاطعه الأب قائلاً :

- (ليلى) .. مرة أخرى ؟ هل ستعود إلى هذا الحديث مجددًا ؟ لقد كنت محقًا إذن فيما فعلته .. لقد حضرت إلى هنا بمجرد أن عرفت أنك قد سافرت إلى (الإسكندرية) .. وقبل أن آتى قمت بترتيب بعض الأمور التى كان يتعين على أن أنفذها منذ البداية لإيقاف هذه المهزلة .

سأله (صلاح) :

- ماذا فعلت يا (شاكر) ؟

- سيكمل (هانى) دراسته فى الخارج .. فهناك سيكون متفرغًا تمامًا لدراسته ولمستقبله .. بعيدًا عن كل ما يربطه بهذه الفتاة .

قال (هانى) :

- ولكن .....

قال له الأب بحسم :

- لا أريد منك أى معارضة .. ستسافر فى خلال أسبوع إلى (انجلترا) لتكمل دراستك هناك .

قال (صلاح) :

- حرام عليك يا (شاكر) .

قال له (شاكر) بحدة :

- سيكون حرامًا على حقًا أن أتركك تفسد مستقبل الولد ، وتشجعه على هذه الزيجة التى ستقف فى سبيل طموحاته .

- لماذا ؟ إن هذه التقاليد والاعتبارات التى تسيطر على عقلك وتصرفاتك أصبحت بالية لا وجود لها الآن .

- إن هذه التقاليد البالية التى تتحدث عنها ، هى التى جعلت منى شخصًا ناضجًا ومرموقًا .. شخصًا له اسمه ومكانته فى المجتمع .

- كل شخص شريف له مكانته فى المجتمع .. والرجل الذى تأبى أن تزوج ابنك من ابنته كان شخصًا شريفًا ونبيلاً أيضًا .

- لا فائدة من الحديث معك .. ما دمت مصرًا على ترديد هذه الشعارات الخائبة .

وأمسك بذراع ابنه قائلاً :

- هيا بنا لنلحق بالقطار .

لكن (صلاح) استوقفه قائلاً :

- لا تظلم ابنك يا (شاكر) .

أدار له (شاكر) ظهره قائلاً :

- إننى أدرى بمصلحته من أى شخص آخر .

* * *



١١ـ سأفتقدك ..

مرّ عامان منذ أن سافر (هانى) إلى (انجلترا) ، لم تتمكن (ليلى) أن تحظى خلالها برؤيته .

لكنه ظل يكتب لها الرسائل ، ويتصل بها من آن لآخر هاتفيًا ليبثها شوقه .. ويطمئنها على أن مشاعره نحوها مازالت باقية .. وأنه ما زال متمسكا بها .. ومصرًا على الاقتران بها .

لكن هذه الرسائل أخذت تقل تدريجيًا مع مرور الزمن ، حتى أصبحت نادرة .. أما الاتصالات الهاتفية فقد توقفت تمامًا .

وفى يوم حزين .. رحلت الجدة عن الحياة .

وفقدت (ليلى) من جديد صدرًا حنونًا كانت تلجأ إليه كلما ضاقت بها سبل الحياة .. ونفسًا نقية طيبة كانت تأنس إليها ، وتجد لديها ما يهون عليها آلامها وأحزانها .

كان احتياجها لوجود هذه السيدة الطيبة العجوز .. أكثر من حاجتها هى إليها .

فالشىء الوحيد الذى كان يهون عليها اغترابها فى هذه الدنيا بعد أن فقدت الأب والأم الحقيقيين ، وأرغمت على الابتعاد عن الأب والأم البديلين والشخص الوحيد الذى عرفت معه معنى الحب ؛ هو وجودها بجوار هذه الجدة الحنون التى كانت تعرف كيف تخفف عنها أحزانها .. وتهدئ من خواطرها .

وتم دفن الجدة فى مقبرة الأسرة فى (الإسكندرية) ، حيث وقف (شاكر) أمام قبرها للحظات بعد انصراف المعزين ، وقد تملكه إحساس بالذنب لأنه لم يستطع أن يقوم بواجبه على النحو الأكمل تجاه أمه .. ولم يمنحها ما تستحقه من دفء مشاعر الابن طوال رحلة عمره معها ، برغم أنها منحته الكثير من دفء مشاعر الأمومة .

راقبه (صلاح) بعينين تفيضان دمعًا وهو واقف على هذه الحالة .

ثم ما لبث أن جفف عبراته ، وتقدم منه ليمسك بذراعه قائلاً :

ـ هيا بنا يا (شاكر) .. لنعد إلى المنزل .

قال له (شاكر) الذى بدت عيناه ملتهبتين من شدة الاحمرار :

ـ إننى سأبقى هنا قليلاً .
لم يعد هناك ما يدعو لوجودك هنا الآن .
سأله (شاكر) بصوت تشيع فيه مشاعر الحزن :
ـ هل كنت بجوارها قبل أن تفارق الحياة ؟
ـ نعم .. كنا بجوارها أنا و (ليلى) .
ـ ألم تقل لك شيئًا ما ؟
ـ بلى .. كانت تحس بدنو أجلها ، وكانت تريد أن تراك قبل أن تموت .
قال له (شاكر) وهو ينتحب :
ـ كنت أتمنى أن أراها قبل أن تموت .. إننى لم أتأخر يا (صلاح) عن الحضور .. لقد تركت كل أعمالى بمجرد أن اتصلت بى وجئت إلى هنا .. لكنها رحلت قبل أن أراها .
قال له (صلاح) محاولاً تهدئته :
ـ أعرف أنك لم تتأخر فى الحضور إليها .. لكن الموعد الذى حدده اللّه (سبحانه وتعالى) لرحيلها عن الدنيا كان أسبق من موعد حضورك .
قال (شاكر) وهو يبكى :
ـ أتكون قد ماتت وهى غير راضية عنى ؟

احتضنه أخوه قائلاً :
ـ كن مطمئنًا يا أخى .. فقلبها كان راضيًا عنك دائمًا .
وما إن انتهى (شاكر) من استقبال المعزين حتى التفت إلى أخيه قائلاً :
ـ سأبقى هنا يومين آخرين .
ـ لا داعى لذلك .. فوجودك لن يفيد بشىء .. لديك أعمالك ومصالحك فى (القاهرة) .. ومن الأفضل أن تعود لعملك .. فهذا أفضل ما يمكنك أن تفعله الآن للتغلب على الأحزان .
تنهّد (شاكر) قائلاً :
ـ معك حق .
ثم استطرد قائلاً :
ـ أظن أنه يتعين أن أصحب (ليلى) لتعود معى إلى المنزل .
اضطرب (صلاح) قليلاً لدى سماعه ذلك .. لكنه ما لبث أن قال :
ـ نعم .. أظن أن هذا سيكون أفضل لها .
ـ وماذا بالنسبة لك ؟

قال له (صلاح) وعلى وجهه ابتسامة مريرة :

ـ إننى سأواصل الحياة .. وإن كنت أظن أننى سأحس بفراغ كبير فى هذا المنزل .. بعد موت أمى ورحيل (ليلى) .

ـ يمكنك أن تأتى معى إلى (القاهرة) لو أردت .

ـ لا أظن أننى أستطيع أن أترك البيت الذى شهد طفولتى وصباى .. والذى عشت فيه مع والدتى ووالدى .

حقًا إننى سأعيش بعض الذكريات الحزينة .. لكننى سأتغلب على هذا الحزن فى النهاية .. وأواصل حياتى كما كانت من قبل .

ـ ألا ترى أنه قد آن الأوان لتفكر فى الزواج ؟ خاصة بعد وفاة والدتنا ؟

قال (صلاح) بعد برهة من الصمت :

ـ بل ـ كما قلت لك من قبل ـ لقد فات الأوان .

ـ لماذا يا (صلاح) ؟ إنك لست كبيرًا إلى الحد ...

قاطعه (صلاح) قائلاً :

ـ لا أظن أن هذا هو الوقت المناسب لنتحدث فى هذا الأمر .

ثم نهض قائلاً :

ـ سأنادى (ليلى) لتخبرها بأمر عودتها معك .

وذهب إليها حيث كانت واقفة أمام نافذتها تحدق فى أمواج البحر المتلاطمة ، وهى شاردة .. وقد كست وجهها مسحة من الحزن المهيب .

كانت تفكر فى كل أولئك الذين رحلوا ولم يعودوا .

وما لبث أن اقترب منها قائلاً بصوت هادئ النبرات :

ـ (ليلى) .

وبدا كأنها لم تسمعه .. فعاد ليهمس لها قائلاً :

ـ (ليلى) .

التفتت إليه وقد تنبهت إلى وجوده .. قائلة بصوت خافت النبرات :

ـ نعم ؟

ـ إن بابا (شاكر) يريد أن يصحبك معه إلى (القاهرة) غدًا .

استقبلت ذلك الخبر بفتور قائلة :

ـ لا أظن أننى أريد العودة إلى هناك .

ـ لكن مكانك الطبيعى هو هناك .. إنك ستعودين إلى البيت الذى تربيت فيه .

ـ والذى أبعدت عنه .. إنه لم يكن بيتى قط .
ـ لا تقولى هذا .. فهناك بيتك وهنا أيضًا بيتك .
ـ إذن لماذا لا أبقى معك ؟
ـ يسعدنى بالطبع أن تبقى معى .. ويمكنك أن تأتى إلى هنا فى أى وقت .. لكنى أظن أن وجودك هناك سيكون أفضل .. خاصة وقد اقترب موعد عودة (صلاح) .
ـ لكن بابا (شاكر) لا يحبنى .
ـ بل يحبك كثيرًا .. فأنت مازلت بالنسبة له ابنته التى تربت على يديه وبين أحضانه .. وأظن أنه سيتغير كثيرًا بعد عودتكما إلى (القاهرة) .. ولا بد أنه سيغير أفكاره بشأن اقترانك بـ (هانى) .
ـ هل تظن هذا حقًا ؟
ابتسم لها قائلاً :
ـ نعم .. والآن اذهبى إليه فهو يريد التحدث معك .. ولا داعى لأن تتحدثى معه عما مضى .
ـ حاضر .
استوقفها قائلاً :
ـ ستوحشيننى يا (ليلى) .

انحدرت عبرة على وجنتيها وهى تقول له :
ـ وأنت أيضًا يا عمى .
ثم دنت منه لتطبع قبلة صغيرة على وجنته .
وما إن انصرفت من الحجرة حتى وضع يده على وجنته التى قبلتها ، وقد أحس بعاطفة شديدة نحو الفتاة .
وأخذ يغمغم قائلاً :
ـ سأفتقدك كثيرًا يا (ناهد) .
ثم ما لبث أن تنبه لنفسه وهو يقول :
ـ (ناهد) ؟ ما الذى طرأ علىَّ هذه الليلة ؟
وأسرع بمغادرة الحجرة وقد اعترته حالة من الاضطراب الشديد .

★ ★ ★



١٢ - أين حبى ؟!

مرت أربعة أشهر منذ وفاة الجدة ، عادت خلالها (ليلى) لتعيش فى منزل (شاكر عزمى) .

وظلت تتتبع أخبار (هانى) من خلال الخطابات التى يرسلها إلى والديه ، واتصالاته الهاتفية .. وإن حرمت من خطاباته الشخصية لها .. واتصاله بها بطريقة مباشرة .

وقد التمست له العذر لوجودها فى منزل أسرته ، وعجزه عن القيام بهذا الاتصال أو مراسلتها فى ظل وجودها بينهم .. واكتفت بأن تطمئن عليه وتتعرف أخباره عن طريق والديه ، وبطريقة أو بأخرى .

كانت معاملة (شاكر) لها حسنة ، ولا تختلف كثيرًا عن معاملته السابقة .. لكن أحيانًا كان يصيبها بعض التوتر .. خاصة عندما وجدت هذا الإصرار من جانبه على تزويجها قبل عودة ابنه القريبة من الخارج .

كان من الواضح أنه حريص على أن يغلق كل السبل أمام عاطفتهما القوية .. ويقضى على كل أمل فى أن يتزوجا .

لكن (ليلى) ظلت ترفض أية محاولة من جانبه لدفعها إلى الزواج .. وإن أدى هذا إلى إثارة بعض المشاكلات بينهما .

وكانت (ليلى) قد طلبت منه بعد عودتها أن يساعدها على الالتحاق بأى عمل .. فألحقها بالعمل لديه فى الشركة التى يمتلكها لتكون سكرتيرته الخاصة .

وذات يوم استدعاها إلى مكتبه ، فدخلت إليه وهى تحمل معها مجموعة من الملفات .

سألها (شاكر) وهو ينظر إلى الملفات التى تحملها :

- ما هذا ؟

- الملفات التى طلبتها حضرتك هذا الصباح .

- دعك من هذه الملفات الآن .. واجلسى .

أطاعته الفتاة وجلست على المقعد المواجه له بعد أن وضعت الملفات على المكتب .

بينما عاد (شاكر) ليسألها :

ـ بالطبع أنت تعرفين ذلك الشاب الذى انصرف من مكتبى منذ قليل .

ـ الأستاذ (نبيل) ؟

ـ نعم الأستاذ (نبيل) .

ـ أعرفه بالطبع .. فهو من عملاء الشركة .. ومنذ أن جئت إلى هنا وأنا أراه يتردد على شركتنا .

ـ عظيم .. وهو أيضًا يعرفك جيدًا .. فقد أظهر اهتمامًا ملحوظًا بك .. ويبدو أنه معجب بك .. لذا فقد طلب منى اليوم أن يتزوج منك .

نظرت إليه (ليلى) باضطراب قائلة :

ـ ولكن .....

لكنه قاطعها وهو يستطرد :

ـ (نبيل) شاب وسيم .. وثرى .. وهو شريك لخاله فى إدارة شركة صغيرة لكن أرباحها وفيرة .. من عائلة طيبة .. وأخلاقه لا غبار عليها .. وأظن أنه سيكون زوجًا مناسبًا تمامًا .

إننى لم أعطه كلمة بعد .. فقد أخبرته أننى سأسألك رأيك أولاً .

وبالنسبة لى فإننى موافق عليه .. وأظن أنك ستوافقين عليه أيضًا .

ـ لكنى غير موافقة .

نظر إليها باستغراب قائلاً :

ـ غير موافقة ؟ إن أية فتاة أخرى مكانك لم تكن لتحلم بعريس كهذا .

قالت له بإصرار :

ـ ربما .. لكنى لا أفكر فى الزواج الآن .

قال لها بغضب :

ـ ومتى ستفكرين فى الزواج إذن ؟ ثم ما الذى يعيب شخصًا مثل (نبيل) ؟

ـ أنا لم أقل إن به ما يعيبه .. ولكنى لا أرغب فى الزواج .

قال لها محتدًا :

ـ هذا رابع عريس يتقدم لك وترفضينه .. إننى حتى هذه اللحظة لم أحاول أن أتدخل فى حريتك فى الاختيار .. فلا تضطرينى لأن أحرمك من هذا الحق .. وأفرض عليك الزوج الذى أراه أنا مناسبًا .

قالت له محتجة وهى تكاد أن تبكى :

ـ إننى لا أدرى .. لماذا هذا الإصرار على زواجى ؟

ـ لأن هذا مصير كل بنت .. لقد توليت مسئولية تربيتك ورعايتك كأنك ابنة لى .. ولن تنتهى مسئوليتى نحوك إلا بعد أن أزوجك .

وجدت فى نفسها الجرأة لتواجهه لأول مرة قائلة :

ـ تزوجنى ؟ أم تخلص منى ؟

نظر إليها بدهشة قائلا :

ـ أخلص منك ؟ ماذا تعنين بذلك ؟

ـ أنت تعرف ما الذى أعنيه بذلك .

ـ اسمعى يا بنيتى .. تتزوجين أم لا تتزوجين هذا شأنك .. لكن إياك أن تظنى أن امتناعك عن الزواج سيجعلك تنالين فى النهاية ما تفكرين فيه .

فما تفكرين فيه لن يتحقق .. بل هو مستحيل بالنسبة لك .

★ ★ ★

استبد الفرح بـ (ليلى) عندما علمت نبأ عودة (هانى) إلى (مصر) بعد ثلاثة أيام .. إنه اليوم الذى انتظرته طويلاً .. والحلم الذى عاشت من أجله كل هذه السنين الماضية .

إنها ستعود لتلتقى بحبيبها .. تلتقى به بعد أن نال شهادته وأصبح قادرًا على أن يتحمل مسئوليته .. ويستقل بحياته .

لم يعد يوجد الآن ما يحول دون زواجهما .

واسترجعت هذه الكلمة فى نفسها .. زواجهما .

ترى .. هل سيكون بمقدورها أن ترى نتيجة لصبرها .. وانتظارها من أجل أن يتحقق هذا الأمل بعد كل هذه السنين ؟

وبقدر ما كانت سعادة (شاكر) وترقبه لعودة ابنه .. بقدر ما كان قلقًا لوجود (ليلى) فى المنزل بعد عودته .

وأخذ يتساءل عما إذا كانت تلك السنون التى قضاها الفتى فى (انجلترا) ، ومعايشته لمجتمع يفكر أفراده بطريقة عملية وعقلانية ، يمكن أن تؤثر فى مشاعره القديمة نحو الفتاة ؟ وأن يتبين جدوى الطريق الذى رسمه والده لمستقبله ؟ هذا ما كان يأمله .

وعاد (هانى) إلى المنزل .

وقد ارتدت (ليلى) فى هذا اليوم أبهى ثيابها ،

وكأنها تستعد لعرسها ، وعندما سمعت صوته وهى جالسة فى حجرتها يأتى من الردهة فى أثناء استقبال والديه له ؛ اصطبغت وجنتاها باحمرار شديد من شدة الفرح والسعادة .

وكادت أن تتعثر فى خطواتها وهى تسرع لاستقباله .

التقت به فى منتصف الردهة .. ونظرت إليه بعينين تتدفقان شوقًا وعاطفة .

كان يبدو أكثر أناقة ووسامة مما كان عليه من قبل .

ورأت أمارات الصحة والحيوية تشع من وجهه .

طفرت العبرات من عينيها برغمها وهى ترنو إليه هامسة باسمة :

- (هانى) .

ابتسم لها قائلاً :

- (ليلى) .. كيف حالك ؟

راقبهما (شاكر) بعينين ثاقبتين ليرى رد فعل هذا اللقاء على ابنه ، الذى تقدم لمصافحتها وهو يستطرد قائلاً :

- إننى سعيد لأننى قد وجدتك هنا .

كانت تتمنى أن تلقى بنفسها بين أحضانه فى هذه اللحظة لتعبر له عن شوقها الجارف إليه .

لكنها لمست منه عدم الاكتراث .. ولم تر فى عينيه تلك العاطفة المتأججة .. فقد تحول عنها سريعًا لمصافحة عمه .. قائلاً له :

- لقد حزنت لعلمى بنبأ وفاة جدتى .. ولكن ......

قاطعه عمه وهو يربت على كتفه قائلاً :

- دعك من هذا الآن .. المهم حمدًا لله على سلامتك .

قال (هانى) سريعًا :

- هل تم تجهيز حجرتى ؟

قالت له أمه :

- إنها جاهزة لاستقبالك يا بنى .

قال دون أن يحاول أن يلقى نظرة أخرى نحو الفتاة :

- حسن .. سأصعد إليها لأبدل ثيابى .. وآخذ حمامًا ثم أعود للجلوس معكم .

واستطرد قائلاً وهو يرتقى درجات السلم :

- لقد أحضرت لكم بعض الهدايا الجميلة معى .

انتابها الحزن وهى ترى انصراف عينيه عنها .. بينما بدا (شاكر) سعيدًا لهذه النتيجة .

أما (صلاح) فقد لاحظ ما طرأ على ابن أخيه من تغيير .. وشعر بتعاطف شديد مع (ليلى) وهو يرى خيبة الأمل التى ارتسمت على وجهها من أثر هذا اللقاء .

★ ★ ★

لاحظت (ليلى) التغيير الذى طرأ على (هانى) خلال الأسابيع التالية لعودته .

وأدركت مع مرور الوقت أن لقاءه البارد معها لم يكن مجرّد أمر عارض يمكن أن تلتمس له الأعذار .

لكنه تعبير عن تغير ملحوظ فى مشاعره نحوها .

تلك المشاعر التى اعتراها الفتور وفقدت دفأها .

وكان كل يوم يحمل لها صدمةً جديدة ، وخيبة أمل ، وهى تتبين هذه الحقيقة ، وترى تعمده الواضح لتجاهل مشاعرها .. واختلاق الأعذار لعدم الانفراد بها .

لكنها تعمدت أن تتحين الفرصة للتحدث معه ذات يوم على إثر عودته إلى المنزل حيث نادته هامسة .. وما إن لمحها حتى أصابه الارتباك وأخذ يتلفت حوله ليطمئن إلى أن أحدًا لا يراه .. قبل أن يقترب منها قائلاً وهو يبدى دهشته :

ـ (ليلى) .. ما الذى أيقظك حتى هذه الساعة المتأخرة ؟

قالت له وهى ترمقه بنظرة تحمل معنى اللوم :

ـ أنت !

قال لها وقد ازدادت دهشته :

ـ أنا ؟

ـ نعم .. إننى أرغب فى الحديث معك .

قال لها مرتبكا :

ـ وأنا تحت أمرك .

سألته بطريقة مباشرة قائلة :

ـ ما الذى طرأ على علاقتنا يا (هانى) ؟ أين ذهب حبنا ؟ ولماذا تغيرت على هذا النحو منذ أن سافرت إلى (انجلترا) ؟

ـ لكنى لم أتغير .

ـ بل تغيرت كثيرًا .. فى البداية أخذت رسائلك لى تقل تدريجيًا .. وحتى تلك الخطابات القليلة التى كنت ترسلها أخذت تختفى منها مشاعر الحب والعاطفة التى كنت تحملها لى تدريجيًا أيضًا .

والتمست لك الأعذار .. وقلت ربما أن ظروفه فى

الخارج ودراسته لا تمنحه الوقت الكافى للكتابة أو الفرصة للتعبير عن مشاعره الحقيقية .

وعندما عدت كنت مختلفًا عن الشخص الذى عرفته وأحببته .

والتمست لك العذر أيضًا .. وقلت ربما اختلاف الأجواء ، وطول البعاد قد أثرا بعض الشىء على مشاعرك .

لكن ها قد مرّت أسابيع على عودتك لأكتشف أن تلك المشاعر قد فقدت حرارتها تمامًا .. وأنك تزداد ابتعادًا كل يوم عن الشخص الذى أحببته .

قال لها ببرود :

- إنك تبالغين فى تصوير ذلك .

قالت له بانفعال :

- حقًا ؟ انظر لى إذن .. انظر إلى عينىّ وقل لى .. أما زلتُ نفس الفتاة التى أحببتها ؟ أم أن هذا الحب لم يعد له وجود فى حياتك ؟

انظر لى لتعرف أننى لم أتغير مطلقًا عن الفتاة التى أحبّتك وظلت وفية لهذا الحب دائمًا .. أما أنت فقد تغيرت .. تغيرت كثيرًا .

- (ليلى) .. لقد ظننت أننى أستطيع أن أقنع أبى بحبنا وزواجنا .. لكنى فشلت فى ذلك .. وأنا لا أستطيع أن أخالف إرادة أبى .

سدّدت (ليلى) نظراتها إليه قائلة :

- ماذا تعنى بذلك ؟

- إننى لا أستطيع أن أرتبط بك فى الوقت الحالى .. فأنا مشغول بمستقبلى فى المرحلة القادمة و ......

أشارت له بالصمت وقد أحست بالألم والمرارة يمزقان قلبها قائلة له :

- كفى ! لا أريد أن أسمع منك شيئًا آخر .

خفض (هانى) بصره وقد عجز عن مواجهة عينيها .. ثم ما لبث أن قال لها :

- تصبحين على خير .

وانصرف وتركها واقفة بمفردها مازالت تعانى آثار الصدمة التى تلقتها منه .

★ ★ ★

١٢ـ الوداع الأخير ..

سأل (هانى) والده قائلاً :

ـ أبى .. أين (ليلى) ؟ إننى لم أرها طوال اليوم .

سأله والده وهو يتناول كتابًا من مكتبته :

ـ لماذا تسأل عنها بهذا الاهتمام ؟

خفض (هانى) رأسه قائلاً :

ـ لقد كنت قاسيًا معها بالأمس .

التفت إليه (شاكر) قائلاً :

ـ بل كنت حكيمًا فى تصرفك معها بالأمس .

واستطرد قائلاً وهو يجلس أمام مكتبه :

ـ لقد استمعت إلى الحديث الذى دار بينكما مصادفة ، وأنا أستعد لمغادرة حجرة مكتبى .. وأظن أنك قد قلت الصواب تمامًا .

إننى سعيد لأنك أصبحت الآن أكثر نضجًا وتعقلاً ، وأصبحت تعى جيدًا ما فيه مصلحتك .

قال (هانى) وقد ارتسمت على وجهه ملامح الإحساس بالذنب :

ـ هذا لا ينفى أننى كنت قاسيًا معها .

نظر إليه (شاكر) قائلاً :

ـ الزمن يداوى دائمًا جراح القلب .. أما أخطاء العقل فيترتب عليها كوارث قد لا يمكن علاجها مهما مرّ عليها من سنين .

ثم أردف قائلاً :

ـ لقد رحلت (ليلى) عن المنزل !

نظر إليه (هانى) قائلاً :

ـ رحلت ؟ إلى أين ؟

ـ عادت إلى (الإسكندرية) .. تركت لى رسالة تخبرنى فيها بذلك .. كما أخبرتنى بأنها لا ترغب فى العودة إلى هذا المنزل مرة أخرى .. وطلبت منى ألا أخبرك بمكانها .. لكن مع ذلك وجدت أنه لا يوجد ما يمنع من إطلاعك على مكانها .. لأننى أصبحت أثق بك وبتفكيرك .

وأثق أيضًا إنك ستقتنع بأن تنتهى الأمور عند هذا الحد .

ارتسمت ملامح الأسى على وجهه وهو يقول لوالده :

ـ ولكن يا أبى .. إننى .....

قال له الأب :

ـ إنك ستسافر خلال الأسبوعين القادمين إلى سويسرا ، لتعمل فى سفارتنا هناك .. ولن تسافر وحدك بل ستكون معك زوجتك .

نظر إليه (هانى) بدهشة قائلاً :

ـ زوجتى ؟

ـ نعم .. (سوزى) ابنة (مختار) بك رجل الأعمال الثرى صاحب الشركات العديدة .. ومن عائلة (النشار) وهى من العائلات العريقة .. إنها الزيجة التى تمنيتها لك دائماً .

اليوم ستذهب معى لخطبتها .. وسوف نعقد القران فى نهاية الأسبوع .

ـ بهذه السرعة ؟

ابتسم (شاكر) قائلاً :

ـ أنا ووالدها متفقان على كل شىء .. والفتاة موافقة على الزواج .. وأنت قد رأيتها مرات عديدة من قبل .. وأظن أنك تتفق معى فى أنها فتاة جميلة ومناسبة .. فتاة مثقفة وثرية وتجيد عدة لغات وتناسب حياتك الجديدة تماماً .

هزّ (هانى) رأسه قائلاً :

ـ كما تشاء يا أبى .

★ ★ ★

استعد (هانى) لمغادرة النادى فى رفقة بعض أصدقائه ، حينما لمح عمه وقد أخذ يبحث عنه .. فاستأذن من أصدقائه وذهب إليه ، وهو يبتسم قائلاً :

ـ أهلاً عمى .. ما الذى أتى بك إلى النادى اليوم ؟

لكن عمه قابله بوجه متجهم قائلاً :

ـ جئت أبحث عنك .

ـ خيرًا .. هل هناك شىء ؟

ـ هل ما سمعته حقيقى ؟ هل تنوى الزواج يوم الخميس المقبل ؟

قال له (هانى) مرتبكاً :

ـ نعم .. لقد أخبرنى أبى بأنه دعاك لمشاركتنا فى الخطبة .. لكنك لم تحضر .. وكنت أنوى أن أذهب إليك فى (الإسكندرية) بنفسى لأدعوك إلى حفل الزفاف .

قال له عمه بصرامة :

ـ و(ليلى) ؟

قال له (هانى) بصوت خافت :

ـ من حق (ليلى) هى الأخرى أن تتزوج بمن تشاء .. ومن حقها أن تختار الشخص الذى يناسبها .

ـ هكذا ؟ بعد أن أوهمتها بحبك وجعلتها تنتظرك كل هذه السنين ؟

ـ (ليلى) لم تعد تناسب وضعى ومركزى الحالى .

قال له عمه ساخرًا :

ـ وضعك ومركزك الحالى ؟ الآن لم تعد (ليلى) تناسب سيادتك .. ولماذا جعلتها تنتظرك إذن ؟ لماذا تركتها تنخدع فى مشاعرها وفى عواطفك نحوها ؟ أى ذنب ارتكبته هذه المسكينة فى حقك لكى تتخلى عنها على هذا النحو ؟

حاول (هانى) أن يقول شيئًا .. لكنه قاطعه قائلاً :

ـ هل نسيت ما دار بيننا على رصيف المحطة فى (الإسكندرية) ؟ لقد كنت أعرف أنك ضعيف ومتخاذل .. لكننى لم أكن أعرف أنك نذل إلى هذا الحد .

ـ عمى .. أرجوك أعطنى فرصة لأشرح لك الأمر .

ـ ما الذى تريد أن تقوله بعد ذلك ؟

ـ إن حياتى فى (أوروبا) علمتنى أنه يتعين على

المرء أن يفكر بعقله لا بقلبه .. وقد وجدت هناك أن المنطق الذى يفكر به أبى هو المنطق الصحيح .

لا أستطيع أن أنكر أننى مازلت أحب (ليلى) .. ولكن المصلحة تقتضى أن يبتعد كل منا عن الآخر .

ـ أى منطق يكون على حساب القلب ومشاعره يعد منطقًا فاسدًا .. ولا يمكن أن يسعد به الإنسان مطلقًا .

اسمع يا بنى .. فى يوم من الأيام أحببت فتاة حبًا جمًا .. وكانت تعنى الكثير بالنسبة لى .. بل كانت كل شىء فى حياتى .. واتفقنا على الزواج .

لكن والدى ووالدك عارضا هذا الزواج كما حدث بالنسبة لك .. وأصرا على ألا أقترن بهذه الفتاة .. لأنها كانت فقيرة ولا تناسب العائلة التى أنتمى إليها من وجهة نظرهما .

ولم أكن قويًا بالقدر الكافى لمقاومتهما .. فاستسلمت لإرادتهما وتركت الفتاة تضيع منى .. ويضيع معها الحب الوحيد الذى عرفته فى حياتى .

وعندما تنبهت للخطأ الكبير الذى ارتكبته كانت الفتاة قد تزوجت ، ورحلت بعيدًا عنى .. ومن يومها

وأنا أعانى الندم لأنى تخليت عن (ناهد) وهى تشبه كثيرًا (ليلى) فى ملامحها ونقاء نفسها .

ومن يومها أيضًا لم يستطع أى شىء آخر أن يعوضنى عن حبها .

نظر إليه (هانى) قائلاً :

ـ ولهذا ظللت بلا زواج حتى الآن ؟!

ـ نعم .. ولهذا أيضًا لا أريد منك أن ترتكب نفس غلطتى فتعيش نادمًا بقية عمرك على ما فرطت فيه .

صمت (هانى) برهة .. ثم نظر إليه قائلاً :

ـ آسف يا عمى .. لم يعد يمكننى التراجع الآن .. وربما كان حظى أفضل من حظك .

أدرك (صلاح) أنه لا جدوى من الحديث معه .. فنظر إليه قائلاً :

ـ أرجو هذا .

★ ★ ★

مرت ثلاثة أعوام منذ رحيل (هانى) بعد زواجه من الفتاة التى رشحها له والده .

وفى خلال تلك الأعوام الثلاثة تدهورت به الأحوال إلى أقصى مدى .. فقد أدمن الشراب ولعب القمار ،

وساءت العلاقة بينه وبين زوجته ، بعد أن اكتشف ما تنطوى عليه نفسها من قسوة واستهتار ، بسبب تربيتها المدللة ، على نحو استحالت معه الحياة بينهما .

وعاد (هانى) إلى (مصر) بعد أن فصل من وظيفته ، وانفصل عن زوجته ، عاد محطمًا يائسًا ليلقاه والده بمشاعر يمتزج فيها الرثاء بالغضب ، وهو يرى ابنه ينحدر على هذا النحو .. ويرى المستقبل اللامع الذى رسمه له وقد انهار وانهارت معه كل أحلامه بشأنه .

نظر إليه بعينين تشعان غضبًا قائلاً :

ـ لقد فصلت من وظيفتك أيضًا .. أليس كذلك ؟

قال له (هانى) وهو يحدق فى الأرض :

ـ بلى .

صاح الأب قائلاً :

ـ بالطبع .. ما كان يمكنك أن تستمر فى وظيفة مهمة كهذه .. بعد أن أدمنت الخمر وبعد أن ساءت سمعتك إلى أقصى درجة .

انظر إلى نفسك .. لقد فقدت كل شىء بسبب رعونتك وطيشك .. زوجتك وعملك .. لقد حطمت كل ما بنيته من أجلك .

نظر إليه الابن قائلاً :

- بل أنت الذى حطمتنى .. أنت الذى قدتنى إلى هذه النهاية .

- أنا ؟

نعم .. فقد عشت دائمًا تحت عباءتك .. غرست فىّ الأنانية وحب الذات .. أرغمتنى على الانصياع لتلك التقاليد البالية ، التى ضحيت من أجلها بالإنسانة الوحيدة التى أحببتها من كل قلبى .

ثم دفعتنى إلى الزواج من إنسانة مستهترة .. بلا أحاسيس ولا مشاعر .. أحالت حياتى إلى جحيم .. ودفعتنى إلى معاقرة الخمر وإهمال عملى .. والهرب دائمًا من المنزل .. كل ذلك لأنها ابنة رجل أعمال ثرى وتنتمى إلى عائلة عريقة .

لقد صورت لى أن هذه هى السعادة الحقيقية .. العمل المرموق .. والزواج من إنسانة تناسب مكانتى الاجتماعية .. دون أى نظر لأى اعتبارات إنسانية أخرى مثل العاطفة أو المشاعر .

ولكنى اكتشفت متأخرًا أنها لم تكن سوى سعادة وهمية من وحى أفكارك ومبادئك .. أما بالنسبة لى فكانت الجحيم بعينه .

نظر الأب إلى ابنه وفى عينيه نظرة حزن قائلاً :

- لقد ظننت أننى أعمل لما فيه مصلحتك يا بنى .

ابتسم (هانى) فى مرارة قائلاً :

- إلى ما فيه مصلحتى ؟ حسن .. انظر إلى ما تحقق لى فى النهاية .

اقترب الأب من ابنه ليواسيه قائلاً :

- سأساعدك وسأجعلك تقف على قدميك من جديد .

لكن الابن أبعده عنه قائلاً :

- ابتعد عنى .. لا أريد أية مساعدة منك .. ولا أريد أن تتدخل فى حياتى بعد الآن .

★ ★ ★

ذهب (هانى) إلى عمه فى (الإسكندرية) ليسأل عن (ليلى) .. وقد عقد العزم على أن يتزوجها .. وعلى ألا يتخلى عنها بعد الآن .

قال له عمه :

- إنها لم تتوقف مطلقًا عن التفكير فيك .. وكانت تردد اسمك دائمًا .

أعرف أننى أخطأت فى حقها كثيرًا .. ولكنى عازم على تصحيح كل الأخطاء هذه المرة .

هناك شىء لا تعرفه يا (هانى) .. إن (ليلى) مريضة .

قال (هانى) منزعجًا :

- مريضة ؟ هل مرضها خطير ؟

- نعم .. لقد أصابها المرض بعد عامين من رحيلك .. واستدعيت لها الطبيب للكشف عليها .

فى البداية ظننا أن مرضها عادى .. لكن بعد أن أجرى لها الفحوص والأشعات اللازمة أكد لى الأطباء أن مرضها خطير .. وأنها لن تعيش به طويلاً .

امتقع وجه (هانى) .. وقد أخذ يهذى قائلاً :

- كلا .. لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا .. لا يمكن أن يحدث هذا .

أمسك (صلاح) بذراعه قائلاً :

- تمالك نفسك يا بنى .. لقد أخفيت عنها حقيقة المرض .. فلا تدعها تعرف شيئًا عن ذلك .

انخرط (هانى) فى بكاء حار وعنيف .. وقد أخذ يردد قائلاً :

- لقد جعلتها تنتظر طويلاً دون أن أدرى أن العمر بالنسبة لها قصير .

عمل عمه على تهدئته قائلاً :

- إنها إرادة الله وليس بيدنا شىء يا بنى .

جفف (هانى) دموعه قائلاً :

- إننا سنتزوج !

- هل تريد أن تتزوجها بعد ما عرفته عن حقيقة مرضها ؟

- نعم .

- لكن الأطباء قدروا لها شهرين على الأكثر قبل أن تفارق الحياة .

- يكفينا هذان الشهران .. أريد أن أعوضها خلالهما عن كل دقيقة مرت من عمرنا دون أن نسعد فيها بحبنا .

فليكن زواجنا الليلة أو غدًا على الأكثر .

- ألا تسألها رأيها أولاً ؟

- أيًا كان رأيها .. فقد عقدت العزم على أن أتزوجها وسوف أفعل ذلك .

فلتلتق بها أولاً .. إنها ستسعد كثيرًا برؤيتك برغم ما تعانيه من آلام .

* * *

قفزت من فوق مقعدها وهى تنظر إليه غير مصدقة .. قائلة :

ـ (هانى) ؟!

اندفع نحوها بحنان قائلاً :

ـ نعم يا حبيبتى .. إنه أنا .. لقد عدت إليك !

خفق قلبها بشدة .. ونسيت فى هذه اللحظة ما حدث بينهما .. وكل عذاب السنين التى مضت .

كاد الشوق أن يدفعها لأن تلقى برأسها على صدره .. لكنها تراجعت وقد تذكرت إساءته لها .. فأشاحت بوجهها إلى النافذة قائلة :

ـ ما الذى أتى بك ؟

ـ كان لا بد أن آتى إليك فى النهاية .. مهما تغربت كان لا بد أن أعود إلى موطنى الوحيد .. وأنت موطنى الوحيد يا (ليلى) .

ـ وماذا عن مستقبلك وزوجتك ؟

قال لها متوسلاً :

ـ لا تحاسبينى على ما مضى يا (ليلى) .. فقد كانت هناك غشاوة على عينى .. كل ما سبق كان خطأ .. وخطأ كبيرًا .. فمستقبلى معك أنت .. لقد تخلصت

من كل القيود التى كانت تحول بينى وبينك .. وجئت اليوم لتصحيح أخطاء الماضى وتعويض ما فات .

ستكونين زوجتى .. وسأبذل كل جهدى لتعويض كل لحظة ضاعت من عمرنا وحبنا .

قالت له وهى تحدق فى الفضاء الممتد أمامها وكأنها تتنبأ بالمستقبل :

ـ ما ضاع لا يمكن أن نعوضه .

جثا على ركبتيه أمامها وهو يمسك بكفيها قائلاً :

ـ على الأقل سنسعد بما هو قادم من عمرنا .

نظرت إليه وقد اغرورقت عيناها بالعبرات قائلة :

ـ هل تظن أننا سنستطيع ذلك ؟

ـ نعم يا حبيبتى .. وسننعم بكل دقيقة نعيشها معًا .

قالت له وهى تتأمله بعينين تفيضان حبًا :

ـ (هانى) .. لقد أحببتك حبًا يفوق الوصف .. أحببتك وأنت قريب منى .. وأحببتك وأنت بعيد عنى .

أحببتك وأنت تبادلنى هذا الحب .. وأحببتك عندما هجرتنى وسببت لى الكثير من العذاب والألم .. فحبى لك هو قدرى الذى لا يمكننى أن أفلت منه .

فأرجوك لا تقس علىّ أكثر مما فعلت .. ولا تمنينى بوعود لن تتحقق .. استحلفك باسم هذا الحب الكبير الذى أحببته لك ألا تفعل .

ضمها إليه فى حنان قائلاً :

ـ لن تكون هناك وعود لا تتحقق بعد الآن يا حبيبتى .. لقد ذهب عمى لإحضار المأذون .. وسوف نتزوج هذه الليلة .

علت الفرحة وجهها وهى تنظر إليه قائلة :

ـ حقًا ؟

ـ نعم يا حبيبتى .. هذه الليلة ستكونين زوجتى .. وسنسعد بحبنا ونعوض ما فاتنا .

قالت له وقد طفرت العبرات من عينيها :

ـ سنتزوج ؟

ـ نعم يا حبيبتى .

ارتسمت ابتسامة على وجهها من بين العبرات التى بللت وجنتيها .. وهى تقول فى سعادة لم تحسها من قبل :

ـ ولن تفارقنى بعد الآن ؟

ـ لن أفارقك أبدًا .

وفجأة تلاشت الابتسامة المرتسمة على وجهها وهى تقول :

ـ لكننى مريضة .

قال لها وهو يغالب تأثره :

ـ ستشفين يا حبيبتى .. وستستردين صحتك بإذن الله .

ـ ألا يمكن أن نؤجل زواجنا إلى الأسبوع القادم ؟ فأنا أشعر بوطأة المرض على .

ـ لن نؤجل شيئًا لما بعد .

قالت له مؤيدة وقد خشيت أن تحرم من تحقيق أمنيتها :

ـ نعم .. دعنا نتزوج هذه الليلة .. أيًا كان الأمر .

وأحس (هانى) بصدرها يعلو ويهبط بسرعة غير عادية ، وهى تلهث بشدة .. فأبعد رأسه عن كتفها لينظر إلى وجهها الذى اعتراه اصفرار شديد .. قائلاً لها :

ـ (ليلى) .. ماذا بك ؟

قالت له وقد ازداد لهاثها :

ـ أعتقد أننى .....

لكنها لم تستطع أن تكمل عبارتها .. فنهض (هانى) قائلاً :

- سأستدعى لك طبيبًا .

لكنها أمسكت بذراعه لتمنعه من الابتعاد عنها وهى تقول :

- لا داعى لذلك .. أرجوك لا تبتعد عنى الآن .

عاد ليجثو أمامها على ركبتيه .. وقد احتوت وجهه بين راحتيها وهى تبتسم له قائلة :

- أشكرك يا حبيبى .

نظر إليها وقد انحدرت العبرات على وجهه قائلاً :

- تشكريننى على ماذا ؟

قالت له وقد تملكتها حالة من الشفافية جعلتها تشعر بدنو أجلها :

- لأنك منحتنى السعادة التى تمنيتها فى لحظاتى الأخيرة !

بكى (هانى) متأثرًا وهو يحتضنها قائلاً :

- (ليلى) .. أرجوك .. لا تقولى هذا .. فما زال العمر ممتدًا أمامنا .

قالت له وقد تحشرج صوتها :

- كنت أتمنى ذلك .. ولكن .

وتوقفت عن متابعة ما أرادت أن تقوله لتزدرد لعابها .. ثم عادت لتهمس له قائلة :

- (هانى) .. إننى أحبك .. أحبك كثيرًا .. تذكر هذا دائمًا ولا تنس ......

وما لبثت أن تراخت يداها من فوق رأسه وهوى رأسها فوق كتفه .

نظر (هانى) إليها فى ذهول ، وتناول وجهها الذى اختفت منه معالم الحياة بين يديه .. وهو يصرخ فى جنون قائلاً :

- كلا يا (ليلى) ! ليس الآن .. ألا تسمعين ؟ ها هو ذا عمى قد أتى ومعه المأذون .. إننى أنوى أن أفى بوعدى لك هذه المرة ! إننا سنتزوج ! أرجوك يا (ليلى) .. لا تتركينى هكذا !

دخل عمه إلى الحجرة وقد تهلل وجهه قائلاً :

- لقد أحضرت معى المأذون .. والشهود و .. و .....

لكنه تجمد مكانه دون أن يكمل جملته ، وهو يحدق فيما يراه وقد تفطر قلبه بالحزن والأسى .

بينما نظر إليه (هانى) وهو يجهش بالبكاء قائلاً :

ـ لا داعى لذلك الآن .. فقد رحلت عنى هذه المرة أيضًا .

إنه الوداع الأخير بيننا .

وداع إلى الأبد .

★ ★ ★

(تمت بحمد الله)

رقم الإيداع : ٧٨٤٨

زهور
سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

السلسلة الوحيدة التي لا يجد الأب
أو الأم حرجًا من وجودها بالمنزل

المؤلف



أ. شريف شوقي

وداعًا إلى الأبد

أحبته حبًا جارفًا .. وتمنت أن
تسعد معه بهذا الحب .. لكنه ابتعد
عنها ولم يف بعهده لها ..
وعندما أراد أن يعود إليها .. كان
بينهما .. وداع إلى الأبد ..

77

الثمن في مصر ١٥٠ مـ
وما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية والعالم